رواية

مدونة ابو عبدو

# مرمر القاسم

# مجانين في زمن عاقل



# مجانين في زمن عاقل

رقم الايداع لدى
دائرة المكتبة الوطنية
2013 / 1 / 161

813.9
قاسم، مرمر
مجانين في زمن عاقل ـ مرمر قاسم
عمان: دار فضاءات، 2013
الواصفات: /القصص العربية // العصر الحديث/.

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-412-6



الطبعة الأولى: 2013



مجانين في زمن عاقل ـ مرمر قاسم - فلسطين

دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 777-911431(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com

التوزيع في تونس
فضاءات للنشر والتوزيع – فرع تونس
شارع الهادي نويرة. النصر اا - تونس 2037
تلفاكس: 21 65 82 70 (216+) - الجوال 39 42 29 98 (216+)
E.mail: fadhahet@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com



---

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

---

مرمر القاسم

# مجانين في زمن عاقل

رواية



ما زال يجيء، فأركض نحو الباب أعانقه فيختفي، وفي بعض المرات يبقى لبعض الوقت،يده على قلبه مؤكداً "ما نسيتُ العهد الذي ينحر صدر المدى". ينضبُّ وجهه خلفه وتمضي ثانية وتنقضي ثانية...

ما بين حيفا وجنين حكاية طويلة وحلم قصير القامة، وحلقة ضعف وعقد ماس انفرط، في حين تألق الصدق فاعتلى سلم الهبوط.

في فلسطين للحب شكل آخر، ومذاق آخر.. وثوب آخر.. في قصص الحب نقرأ الكثير من الشّبق، والعديد من لحظات حب لذيذة للنظر.... وفقط للنظر... في فلسطين قصص حب يقف التأمل عندها مكتوف البصر، قصص حب موثّقة عند الحواجز بكمٍّ كبير باهظ الشوق، كثير التعب... في فلسطين العاشق لا يشبه عشاق الأرض، والمعشوقة مثل طيف يطل مع ميول الشمس عن قبّة السماء وتختفي حينما يطلب منها وثيقة تثبّتُ أنها أم لإرهابي منتظر.. ولاحقا تصير الذكرى مثل الأشباح تخرج من الضباب في ظلام الليل والوحدة، تمر من خلفك ومن أمامك وعلى جانبيك، بعضها غاضبة وبعضها الآخر تشعر أنَّ بها رغبة في لمسك

لكنها لا تفعل،فتهمس في أصقاع الذهول "أشتاق إليك" تلقيها عليك مثل تعويذة ثم تكمل السير نحو اللاشيء.

في أثرِك سوف أطلق كل الحبق لعلّ تعود إليّ في هيئة شبح يمسك بي ويترك الهمس، أطلقت في أثره قوافل الفل فعاد في هيئة شبح يهمس ولا يمس، إنَّ لعنة العطر تعويذة تلقي القلوب سجدا. والحب في فلسطين فقط يعطي للسكون شكل الحركة.

كانت على عادتها كلَّما أتيحت لها دقيقة من فراغ، تسير في غرفتها الصغيرة طولاً وعرضاً، فتمضي من النافذة إلى الباب ومن الباب إلى النافذة، مصالبةً ذراعيها إلى صدرها، مكلّمة نفسها، من حين إلى حين، ولقد تعودت منذ مدة من الزمن أنْ تتحدث إلى نفسها غير مبالية إذا سمعها أحد أو شاهدها تفعل، فهم وعلى أية حال لا يفهمون أشياء كثيرة،حدّثت نفسها عن الاعوام الثمانية المنفرطة، ثمانية أعوام قضياها كالحصان العابر في جرّ العربات، في ميدان الحياة لم يلحظهما أحد، ولم يفهمهما أحد، قالت: قد نكون يا رفيق عابرين بالفطرة كالمحاربين في ساحة قتال، وقد نكون مثل تمثال برونزي لا يقف إزاءه أحد إلا لالتقاط الصور.

هناك وحدك في مدن تفرح بالمطر،

وهناك تغرق بالمطر، وهناك مدن تكثر فيها الحوادث العاطفية وقت المطر، وهناك وحدك تقف بشراع، ساقيك سفينة نوح وبدون مظلّة، هناك

حيث تستعذب السير وحدك في أزقة المدينة المصلوبة على الوجوه،على قدم وساق بيدك اليمنى زهرة وفي اليسرى حزمة أوراق، هناك وحدك، تأكل آلامك بشغف تماما كما لو كانت تمراً ملوّزاً للإفطار.

هناك،حيث تقف بملابسك الهشّة يختطفك ثراء الرّهبة،هناك حسب توقيت مواعيد الخوف، نبضة واحدة زيادة على الايقاع، لك وحدك!

وكعادتها في طريقها عائدة من الدراسة في كلية المستقبل الواقعة في مركز مدينة العفولة إلى الشمال من سوقها،عرجت على مدينة جنين، مرّت على رفيقها محمد الذي اتّخذ له دكّاناً في زُقاق السوق الضيّق في الجزء الجنوبي من سوق المدينة،والذي تتَصادم فيه الأجساد، وتتشابك الأنفاسُ بما يُثقِلها من هموم وصعوبة عيش،حيث ترتطم النظرات بالنظرات، إذا ما مررتَ بهم صار لك شكل آخر.

نظرات تعرّيك من أفخر الأقمشة،نظرات تقول أنت لست منا أيها الإسرائيلي، فتعتاض الصمت إلى أن تصل إلى دكان محمد تحتمي بفكره من نظرات تجري في الشارع جريان الدم في الوريد، لديه فقط كانت تشعر بالستر وكانت لتكون عربية فلسطينية بحت.

كان ملاكها في حين يرى المجتمع في الضفاوي شخصاً مجرماً خارجاً عن أنظمة القبيلة، مجتمع من المفروض أن يكون قطعة واحدة، مثل قطعة

القماش المطرّزة، إلا أنه في هذا الكوكب التّرابي اللولبي أصبح ذا أرقام رياضية ضوئية لكل رقم خاصية فيزيائية قابلة للقسمة وللربح والخسارة.

هو ذاته محمد جارها في الحي القديم (الحارة الشرقية) قبل أن تنتقل للسكنى في حيفا.

كان يصفه الناس بالشاب الطيب الشهم، غير أنه لا يليق بمصاهرة أهل ليالي لكونه من المقيمين في الرقم 67 وحجج أخرى حاججها بها إخوتها وأصدقاؤها المعارضين مستندين بمعارضتهم إلى ذكر قصص تعذيب الفلسطينيين بعضهم لبعض، قصص حاوَلت ليالي تقنع نفسها مرارا وتكرارا أنها ليست إلا حبراً على ورق أو محض خيال.

لَم يكلِّف محمد نفْسَه مصاريف التَّطوير والتحديث كما هو طاغٍ اليومَ على كل محلات المنطقة، قرَّر أن يبقى كما هو، صابرًا جَلدًا في وجه العصْرَنة، يحمل كتابه في يد، ويقدِّم بالأخرى للزبون ما يَحتاجه، يشغل في فضاء المحل الراديو على صوت إذاعة راديو البلد (لاحقا تغير اسمها إلى راديو الشمس بعد أحداث الاجتياح وتم اعتماده وترخيصه من قبل الصهاينة) أو شريطا لفيروز.

كانت قد دخلت عليه وهو مشتغل بِتراتيل فيروزيّة وتمتمة لا تفهم كُنهَها، في البدايات كانت قد بذلت الجهد في ذلك دون جدوى. يَحسبُ مَجْموع المقتنيات لِهذا، ويعود يرتِّل من جديد يتمايل مع القهوة، وأصبعه

تَفْصل الصَّفحة التي همَّ أن يقرأها عن باقي الصفحات من كتابه المغلَّف بورق أنيق وما أن شعر بوجودها حتى توقف ملتفتا إليها يرمقها بنظرة عتاب قائلاً: تأخرتِ عليّ هذه المرة قطتي.

في عينيه نظرات توحي نوعيّةُ الكتب التي يقرؤها، لكنك أبدا لن تستطيع التخمين بما كان يفكر في تلك اللحظات، وأنه لا جديد اليوم في أَرْوِقة قلبه، وأنّ الزمن توقّف عند القُدَماء، وأنّ هذا التّعاظم الذي يُخَيّل إليّ في عدد الأوراق المنتشرة في مكتبتي، سيَحترق بفعل الشمس التي أشرقَتْ يوماً ما على حيفا.

وفجأة قال: لئن كانت الأسماء تباع فإنَّ الشخوص غير قابلة لذلك أبداً، ولأجل الوطن، الأرض، الإنسان أنتِ، يهون كل شيء تعالي واجلسي إلى القرب مني.

- السؤال الحاضر دومًا هُـنا من المهان ومن المهين ولأجل مَـن؟ كانت جدتي تقول: هكذا أقدار البسطاء.

أمسك بكلتا يديّ وحدّق بي مباشرة ثم أضاف قائلاً: كل قدر ينجب سبع سنوات عجاف يا ليالي وعنتاً شديداً لم يرتق حطام ذلك الآدمي في دواخلنا، ينزلقون بين حقول الخيانة دون حذر، هاربين من رائحة بساتين الدّراق، وأصابع الانتماء هذه مخضبة ببعض من دم غزال . يتشاجرون باستمرار.

قبّل يديها وألقاها بعصبية على ركبتيها.

- لكنهم لم يستطيعوا العيش دون بعض، يقتاتون الآهات في عشق واغتراب،يوقظون،السماء على وقع قدوم الأحلام لتوغل سمرتهم في ألوان التراب وفتنة عبقه الأصيل،يا محمد لو كنّا نعلم لمَ لسعتنا بشاعة فاحشة ولمَ آلمتنا معصية واعظ، ولو كنّا نعلم أنه بإمكان أيّ فرد منا اختصار الوطن في زجاجة عطر ولعبة ورق لمَ بذلنا ذاك الجهد كله.

أربعة أو خمسة فناجين ومنفضة ملأى بالسجائر المطفَأة، ينتهي الحديث بصوت مؤذن المسجد القريب من دكانه: الله أكبر الله أكبر.

وقبل أن يغادرني إلى صلاة الجماعة يؤكد عليّ ضرورة انتظاره وعدم المغادرة قبل عودته .

يكفيني الحنين إليه وإلى التراب ليغريني بالبقاء، يا آخر الحب هزَّ القصيدة قد امتلأت روحي بك. تَساقَطَ همساً فوق أهدابي علّه يثقلها أنام وأظل أحب عالمه الخيالي، معتقلة دون رقم أو هوة، ألا ليت الوقت المتبقي يسعفني كي أهديه أغنية حين تدق ساعة الرحيل فلا أتذكر إلا هو.

في الطريق إليه راودتها نفسها عن المراد تصارع ذلك الملازم خط الحلم لستُ ألومها فهي تدري معنى وجوده وبقائه، هذا الذي وهبها واقع إمبراطورية أنثى، قمة قد نالها جنونها.

طيفه أزخر بالأمل ذاهبا وآيبا يجتاز أوتار الشوق، يضيّعها في نسيج لفّه الخيال، فيصير للقهوة مذاق آخر سواء أثناء فترات الركود أو أثناء ساعات الشقاوة،حين يأتيها متأنقا بوشاحه الأبيض، يندفعان اندفاع المجانين في ارتعاد وخوف كأنّهما في منتصف حلم أشبه ما يكون بالكابوس الرهيب كمن يلعب لعبة الخطر، حينها تصبح الأشياء سهلة أو على الأقل هكذا كانت تبدو لهما، وشيئا فشيئا،حتى يوقفهما شيء ما!

- تأخرتُ عليكِ حبيبتي..
- أبداً، طالما كنت مع الصلاة، فلا بأس.
- ألا تغارين؟
- وهل يغار التراب من التراب!
- ماذا تفعلين في هذه الأيام، وكيف تقضين أوقاتك؟
- في العمل، والبيت، أصبحت أقرأ أكثر، وساذجة أكثر.

أخذ يدي بين يديه وقد تحولت عيناه إلى نبع برّاق،ثم ضمهما إلى صدره قائلاً: أنا الأحمق يا ليالي.

- بل أنتَ كبير الحمقى.

- معكِ حق، كنتُ غبيا عندما ظننتُ أنني قادر على العيش دونك، كنتُ مثل غيري، صدقت ما يقولون عن أن للزمن شأنه في الأمور! هلّا غفرتِ لي؟

قالها ملقياً برأسه في كفيّ.

- أتراني أغفر لك قتلي!

- أخاف أن أهاجر إليك فأجدني كالريح أعصف بالخطايا، وكعجور الليل بالوحدة أقاتل.

- أفهمتك أنني لا أملك أجرة تصفية الأمر بمفردي،ثم أوضحتُ لستُ أنا، هي ورجولتك، فعلا كل شيء بمنتهى اللباقة وخرجا من ظفري، هذان شقيان يتقاتلان في كبدي، إذا حانت لحظة الاجترار، رغم أن مساحة الاقتراب لم تتجاوز عُشر اشتهائنا. ونحن لسوف ندفع فاتورة المغامرة، لكنني خرجتُ مني يا محمد وإن عدتَ لن تجدني.

التقينا في مقهى فتوش في حيّ الألمانية، أكثر الأماكن قربا لقلب ليالي وأكثرها أريحية، مكان دافئ رغم قربه من البحر وامتلائه بالذّكريات الموجعة، كانت قد سبقتني إلى المكان، حين وصلت كانت قد احتست ثلاثة فناجين على الأقل ودخّنت نصف علبة سجائر على الأقل، في الفضاء كان يصدح صوت فهد يكن بأغنيتها المفضّلة "لماذا أُقدّسُ فيكِ عذابي....أحبكِ إنّي أُحبُّكِ سيّدةً لانتظاري، ومغفرةً لجنوني الغريب وصوتاً لناري، فأُحبُّ على ساعديكِ انتحاري".

في هذا الصباح الماطر اللّئيم كلّ شيءٍ تضامن ضدّ أحلامنا، حتّى المقاعد اتخذت لها شكلاً آخر ولونًا جديداً لا يشبهها في بقيّة أيام السّنة، كنتُ أحب أن أرقبها من بعيد، شكلها، لون شعرها الغجريّ الساحل مثل شاطئ عذري لم تطأه قدم عابثة، طريقتها في وضع السيجارة بين الإصبعين، ونفث الدّخان حتى آخر ذرّة، كما تفعل البراكين الثائرة، معطفها الملقى بعفوية فوضوية على المقعد المجاور، نظراتها الشاردة نحو شيء ما لا يُدركُ ولا يُفهم، كلّها أشياء تغري الناظر إليها بالمتابعة، متابعة

الدّخان وتتابع الفناجين والدّمعة المخنوقة، وتحشرج صوتها عندما تنادي النّادل لطلب المزيد المزيد وتُدَخِّنُ حَتّى آخر عقب كبريت.

- سحر

- ليالي

قبّلتني ثلاث قُبَلٍ ثمّ عادت للجلوس مسندةً ظهرها إلى حملها الثّقيل وتمسح وجهي البارد من زخّات المطر.

- كيفك يا شهيّة العِطر؟

- مع الصياح والجلبة وزلزلة متناغمة، مع أصداء الصبح الهادر، وأزيز المركبات المسرعة نحو اللامفهوم، وصيحات الأطفال في الشارع المجاور، هاجمتني مشاعري كافة وزجّت بالذكريات فرادى وجماعة، ومن عمق اشتياق تلفظنا الأماكن، للحظة خلتني أقف قبالة بيتي أصرخ كما طفل ضائع ضلّ عنه أبواه والتقطه الرصيف.

- كتبت في قصاصة ورق بلَلتها قطرات قهوة شاردة من بين شفتيها:

يَا غَائِب وَلَيلُ اَلشَوْقِ فَضفَاض يُزَخْرِفُهُ سِحْرُ اَلِلقَاء اَلْأَوَلِ، مَطَرٌ... مَطر...وَلُفَافَةُ تَبْغ وَتَرَاتِيل، تُوقِظُ الحُنَين اَلْوَسْنَانَ، تُحَرِّضهُ ضِدِي، ضِدَّ هَذِهِ اَللَيْلَة وَتَشَفّ، وَأَشْمَتَهُ سَيل اَلْكُحْلِ مِنْ عَيْنَيَّ،، قَهْوَة سَادَة، عــ

الرّيحَةَ... يَا سَمْرَا سُكَّرْ زِيَادَةَ، أَشْعَلْتُ آخِرَ شَمْعَةٍ بِنَكْهَةِ تشولي كَانَت فِي حَقَائِبِي، وَبَيْنَ جُدْرَانِ غُرْفَتِي أَشْعَلْتُهَا، وَيَا لِهَوْلِ مَا رَأَيْتُ، يَاوَيْلَتِي، إِنَّهُ يَلْعَقُ بِشَرَاسَةِ اَلجَائِعِ دَمِي!

تَغَيَّمَت اَلسَّماء، مِثْلَ أُنْثَى حَمْقَاء بَالَغَ اَلشَّوْقُ فِي تَعْذِيبِها، تَرْغَبُ حَبِيبَهَا اَلْآنَ اَلْآنَ لِتُمْطِرَهُ بِالْقُبَل، تَغَيَّمَت اَلسَّاعَةُ بِالذِّكْرَيَات لِتُسْقِطَنَا فِي فَخِّ اَلْأَنِيْن حَتَّىَ آخِر عَقِبِ كِبْرِيْت، بَيْنَ غَيْبُوبَة اَلسَجَائِر وَوَعْيَ اَلدُّخَانِ اَلدَّافِئ.

مَتَى تَسْتَقِيْلُ قَطَرَاتُ اَلمَطَر مِنَ اَلشِّتَاء يَسْتَقِيْلُ حَبّي لَك.

تتقدم صيرورة الصور كـسيل جارف كـبركان لا يذر، يَحْتَضِرُ في طريقه الأمل ذهابا وإيابا تمر الأوجاع على الوتر، يرقص بندول الساعة المشنوق بين الثانية والدقيقة، وتتابع ليالي سرد الشجارات الّتي تداهمهما في الصّباحات، وأنا أُعَذَّبُ بالاستماع.

ربما عاقبه الله بي يا سحر أو عاقبني به، وفي كلتا الحالتين كلانا نال عقابه، كم يشبهه الخريف، وليته تساقط لعلّ دثار الأرض يغنيه عن الأغصان وعني.

- كلما دنا منّا بنار حقدهِ أزدادُ بالوقت تعلقا، ليت أحداً يكرّر على مسمعي تلك الكلمات الجائرة وهو يسير عِرض الوقت ينصب نصبا منصه: "هذا الضّفاوي ليس لك."

- ويكر ضجيج الهمس على مقربة من شتيت الفجر شُنقَ السكون على أرصفة حيفا فغدت الحدائق أكثر حزنا من ذي قبل وثُبّتت حقيقة الجدار.

هذه المرة اختلف الأمر أيها المجانين، فعلى مرمى شهقة من فقداني، جلس ببرودة أعصابه المعهودة دون أن يقتلني، بين أصابعه سيجارة يشعلها يمتصها بنهم، فينضج الموت في فمي ولا يهتكنّ سرّ الدخان، يكفي نظراته اغتصاباً لحرمة امتناعي فيزداد شوقي واحتراقي.

فهمت فهمت، هكذا صرخ ملوحاً بدخان سيجارته المجنون، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة، أدركتُ إذ ذاك أنني جاوزت حدود المرأة واعتديت على واجبات الأنوثة، فرأيتُ أن أعتاض بالصمت عن الاندفاع في الهمس واللمس.

– وحدنا لمّا فرغنا من الانشغال بالاشتعال طفنا في كنان الخاطر نفتش عن حلم علاه الطحلب، بحثنا عن ثغرة ندخل منها في سبات عميق.

هل أخبرتك؟ أومأ لي الأحمق جدي أنني غامرتُ على النعاس فاستغرقتُ في يقظة، أومأ لي، وكأنني لستُ حفيدته الحمقاء!

- وماذا قالت الحمقاء لجدها؟

- قلت له: يا جدي ليس أشهى من رجل وامرأة يقظة كل حواسهم يغشاهم النعاس، ثم غادرني تاركاً لي مساحة مندوحة بالوجع أنفرد فيها عن سائر البشر.

- جعلوا من أجسادنا مطيّة لهم في زمن عاقل جداً، يا ليالي في قفص مسكون بمطرقة، أيا غاصبي تبختر في المشي ومُدَّ اليدين مهما تعاليت وتمكنت لن يطول القعود، مهما تراصت الجراح في القلب.

قالها وصمت على بقية الحروف كمن يطحن حبة فستق بين أسنانه كدت أسمع أنين الحرف وكان لا بدَّ من تقاطع مع الطرف الآخر كي تدور عجلة الزمن فينا وندرك جدوى الأشياء التي لا تعاد مثل أعياد الطفولة.

مصادفة عكرتُ صفو حياتي وتركت العمر يمر من أمامي مفخخا بقسوة التقسيم، أحن إلى قهوته وضحكاته وسؤاله الدائم: من أين تأتين؟ ومشاكسته غفلة كانت لعبتي المفضلة استفزازا بهدوئه، كانت رغبة مني بالتأكد من درجة اشتهائه، همسة واحدة كانت تفصلنا عن الخطيئة، ونُصرّ على أن نبقى لغزاً نطوف في أرجائه بحثا عن زهر الثمار، حماقات ورثناها عن الأمهات والجدات.

كان وما زال الحزن يتمدّد ما بين جنين وحيفا ويضحك فرحا عندما يلتقيان وها الآن ينتظر موعداً آخر ربما في حيفا وربما في جنين.

لم أشبع ناظري لكني استبنتُ من عينيه موطني، ملاذي من أشواقي إلى غابات الصنوبر هنا، هنا بين هذا العشب. تدقُّ بيدها على صدرها المكتنز شهوة وأمومة. اليوم ومنذ تلك اللحظة يغالبني الحنين إليه وإن تأخر .....

عاد للحديث محاولاً تغيير مجراه:

- ساءني كثيراً أن تحول الشرقي عن أصالته فصار يستهلك المرأة مثلما يستهلك الصابون.

دنت منه هامسةً حتى إذا ما اقتربَتْ منه أكثر اشتعل قلبه عشقا:

- حتى أهيم فيك، دع الارتباك جانباً إن مررن بك همساتي، واجلس في الظلّ مستفيدا من شبه حديقة رخامية للعابرين سبيلا، وتأمل المشهد من جديد، هل حقّاً ساءكَ تَحولهُ؟

- تمنيتُ العيش زمن المناذرة؛ لأن هناك كانت المرأة حضارة والحضارة أنثى، والشرقي دكتاتورا ممزوجا بأزمنة أصيلة الطباع والروح، فَمَلَكَ الحيرة وعنق الغزالة، كان جناح رفقٍ يدنو من النساء بحنو، مثل لون مضيء بعيني رسّام ساحرتين لا يفعلان سوى النظر، ولا ينتهكان حرمة البصر، هناك حيث كانت المرأة بهجة ومهجة للروح لا تبتذل، مثلما تبتذل التماثيل في صالات العرض، وحيث كانت الرجولة فروسيّة نضرة بحجم نضارة النور، وما كانت أنثى لتشابه في قولها وفعلها الذكر.

- تعال نهرّب الأماني بعيداً عن أزمنة التيه وقهقهاتهن، ونطارد الأثير حتى تذرف الأحلام حباً وسأقول لهم: لو ملأتم الدنيا عطراً ما عدلتم عَرَق حبيبي.

ذات صباح وقف محمد مستندا إلى تل كبير من الوجع حيث يُسْمَعُ همس العشاق وتُرى لا مبالاتهم قائلاً: أيها الناس لا أطيق أن أظلّ ساكناً صامتاً، لابد من نهاية لكل أمر. إن معضلة دولة المجتمع الكبرى أننا نتفاوض مع ديكتاتوريات لا تمثل عوائلها بشكل حقيقي، يا ليت زمن الفروسية يؤوب بما فيه من عزة وشموخ.

أحسست بصدق قوله عندما رأيت دكتاتورنا الأكبر يربط بين قرارات الارتباط وتوجهاته الشخصية السياسية دون أن يكترث لذبول أعمارنا الآفل، ولقد شعرت بشهقة كبيرة تجيش في صدرها مستغرقة الاستغراقَ كلّه فيما حولها وفيما ينعكسُ ممّا حولها على ما في دواخلها، أرادت أن تعطي الأمر حجمه وحقّه، ما دام هذا العمر مسلوباً متاحاً للنهب، هل من غرابة في هذا الأمر؟ في حين أنهم سلبونا كل شيء حتى الوقت كان منهوبا، وأورثنا الشخصية البوليسية، وبحرفية عالية دققنا في كل التفاصيل فأفسدنا علينا كل لحظة سعادة.

كان حسام "الممحاة" يقول دائما: الاختلاف رحمة وهو مطلوب مثل الاجتهاد، وكلاهما من الجميل التشابك معهما في قضايا أكثر أهمية وخطورة وإلحاحا ومصيرية!

كان يدعم حرية التعبير بلا شك وبلا حدود لكن مناقشة ما تخطته الشعوب منذ عشرات أو مئات السنين واستمرارنا نتجادل حوله مؤشراً لحالة من البدائية تعتري الكثير من مناحي حياتنا وهو مقياس لحجم تأثير سطوة تيار لحقبة زمنية على مجتمع اليوم والذي بدوره يحصد ثمار صمته على تجذر هذه السطوة فيه، وبالتالي صرنا نرى تجاوز الجدل حول قضايا شخصية هو تجاوز للمرحلة وتطلع إلى مستقبل أكثر مواكبة للعالم ومستجداته وأكثر عصرانية واحتراما لحرية الخيارات، خيارات الفرد الذي من حقه هو فقط أن يقرر هل يناسبه النسب أو يقاطعه ببساطة، في هذه المرحلة بالذات صارت مؤلمة ملامحنا.

كان محمد يغيب كثيرا وكانت ليالي ترقب الطريق كمن يقف على وريده في أشد لحظات البرد قسوة، كانت تخاف أن تنهرها ريح الذكرى وتنثر بوجهها رمادها بين دهاليز الأيام. ففتشتُ عن كلماتٍ تليق بالحدث فوجدت أنَّ اللقاءات الأولى تنطبع في الذاكرة بطريقة خاصة، أشياء عديدة تترتّب عليها، فمهما حدث من تطورات وتغيرات فشيء خاص بقيَ ممتداً بينهما إلى الآن، وبرغم ذلك تعلّمت القفز وتخطي جدران الكذبة.

رحلة قصرية في العذاب مرورا بزيف عباءة، لمّا ظننا نيران الانتفاضة خفتت ولم يظهر كلا الفريقين رغبة في استمرار الصراع إلى أن تمادى شارون ووطأ المسجد الأقصى بنعليه معلنا عن تمرده ولامبالاته بمشاعر المسلمين متحديا بفعلته ياسر عرفات الذي سبق له وحذره من القيام بها، إلا أن كلمة ياسر عرفات لم تكن لتخيفه، ولم يعدل عن قراره، وكأنه قال له ادخل الأقصى، فدخل.

حينها عهداً جديداً قد بدأ واندلعت نار الانتفاضة في جميع أنحاء فلسطين، أدى ذلك إلى اتخاذ قرارات وإجراءات أقسى، أذكر اتصال ليالي في إحدى الليالي، قبيل الفجر بساعات قليلة.

- سحر أبناء عم محمد في مشكلة كبيرة، عند حاجز سالم وأريد منك المساعدة الفورية.

- ما الّذي حدث ؟

- حادثة سير وواحد من بينهم حالته خطرة جدا، والجند على الحاجز يرفضون السماح لسيارة الإسعاف بالعبور في اتجاه مشفى رمبام.

اتصلت بأحد أعضاء الكنيست العرب للحصول على مساعدة، كما عمل آخرون في اتجاهات أخرى، ودون جدوى بقينا ساعات نحاول إلى أنْ حصلنا على تصريح بالسماح للمصاب ومرافق فقط، كان الوقت قد تأخر وفقد المصاب على أثر الحادثة بصره إلى الأبد.

في مثل هذه المواقف كنت أشعر بالتحام الضفاف بأشد ما يكون الالتحام، مشكّلين عذابات وإن أنمق جملي لا تستطيع وصف جمالية الحدث رغم قشور الألم.

وفي تلك الفترة أيضا كانت قد توجهت أميمة زوجة كمال الأخ الأصغر لليالي إلى الضفة لتلقي العلاج لكونها منعت من الحصول عليه داخل

أراضي الرّقم 48 ولعدم تحصيلها على الهوية الإسرائيلية. وكأن الفواجع تأتي تترى، فلم يمض يومان على حادثة أبناء عم محمد لتأتي حادثة أميمة.

في طريق العودة أوقف الجند أميمة عند حاجز الجلمة ومنعوا عنها العودة إلى بيتها وأطفالها بحجة الإعلان عن الضّفة منطقة أمنية مغلقة، كان كمال في انتظارها عند الحاجز ومعه أطفاله الثلاثة الصغار.

كانت الساعة شارفت على الثامنة مساءً وقد أنفق كلّ الصبر في انتظارها، حين تلقّى اتصالاً من أميمة تخبره بعدم سماح الجند لها بالعبور في اتجاهه وأنها فشلت بعد محاولات مقيتة وإذلال في إقناعهم بوجوب السماح لها بالعبور. ما زلنا إلى الآن لا نعرف مدى الحقد الصهيوني. هكذا قال كمال لليالي عبر الهاتف حين هاتفته مستفسرة عما يحدث هناك عند الحاجز بعد تأخره بالعودة.

أسوأ المواقف أن تحاول إقناع عدوك بأن يكون إنساناً، فكم من الإذلال والمشقّة يعبرهما صوتك ليخرج بالمحاولة!

فجاء صوته هادراً مدوياً: مازلنا لا نعرف مدى الحقد الصهيوني.

كان مساء كالجرح مفتوحا على ملوحة تزيده إيلاما بالجميع، بكل من كان هناك وسمع وشاهد، بأميمة يتيمة السّماء، بكمال بضحكات الأطفال الساذجة، بليالي الواثبة بالباب تنتظر أزيز عجلات سيارة كمال، بحلمها العربيد في الرأس الصغيرة، إلا بالجند الساخرين من شدّة رغبة الأم

وشوقها إلى أطفالها، كلّما راحت تشرح لهم أهمية وضرورة عودتها إلى أطفالها أبدوا التّعجب، ومن قوة غيرة الزوج على زوجته ورغبته في إيوائها، إنّهم لا يفقهون معنى الرابط الاجتماعي والإنساني الديني بين المرء وزوجه ولا يدركون المعنى الحقيقي للأمومة والأبوة، فهم مثل الغرب ما أن يبلغ الثامنة عشرة حتى يبتر عن العائلة كما تقطع أغصان الشجرة فلا صلة بعد ذلك بينهم وبين أمهاتهم وآبائهم. ليسوا مثلنا ولن يشابهونا أبداً.

في تلك اللحظات كانت تحاول أن تستعيد وعيها المفقود منذ عرفت محمداً، لكنّ القهوة ما عدلت مزاج الفكرة وبقيت لساعات طوال تجوب أرجاء المنزل ذهابا وإيابا وتتوالد الاحتمالات ضفاضع مشيئة خيبة وفواصل فواجع ووجع، وتموء أحلامها كقطّة هزيلة بلّلها الأرق.

ففكرت في كل اتجاه ووضعت كل احتمال نصب عينيها مكان الحساء الّذي كان قبل ساعات ساخنا في انتظار الأطفال، فهي الّتي تعرف كمالاً كما لا يعرفه أحد.

بعد أن فقد كمال الأمل في احتمالية السماح لأم أطفاله بالدخول في تلك الليلة الطافحة بالغضب طلب السماح له بالعبور إلى الجهة الأخرى ليصل إليها كارهاً فكرة مبيتها لدى الغرباء.

كيف لا يُسلم هؤلاء التعساء في فلسطين ويتجلّى إعجاز الرّب في القهر على الحواجز!

أكثر ما كان يخيف ليالي في تلك اللحظة هو السماح لكمال بعبور الحاجز في الاتجاه الآخر، فقد ولج منزلة أخرى من الغضب وتكاثر الجنون وتكاثف القهر عليه فَعَلَت وجهه حرارة الدّم، لم تكن أميمة مجرد زوجة أخ، بل كانت من الأدلة الدامغة على إثبات صلة القرابة ما بين الضفاف وهمزة وصل أبدية وشعلة تخضع الطريق إلى محمد، كانت ليالي تعتقد أن شدّة الألم الّذي عاشته أميمة إثر اليُتم تسبب لها بقصر القامة. فكانت تخشى على طولها وتقيسه ما بين الحين والآخر، فربطت كلّ جروح جفرا بقصر القامة.

ساعات طافحة بقهر قد تتضمّنه قارة بأكملها، كيف تحوّلت هذه الجنة فوق الأرض إلى غابة أحرقها أهلها الشياطين والسرّاق والفاسقون كما أعواد ثقاب فكريّة فاسدة سريعة الاشتعال، كيف تصير الجنّة جحيماً!

واستمر قادتهم في خلق فرص باستمرار في التمادي بنحر المواطن الفلسطيني بمساعدة قادة الأحزاب الفلسطينية، مما أباد أية فرصة للنهوض بهذا الشعب. وطالت القيلولة وغط السادة في نوم عميق، تنهشنا الفئران فيتعالى الصراخ من جديد وترتعش الكلمات.

كنا نلحظ ذلك في الأماكن العامة والمتنزهات وحتى تلك الجبال أصبحت تعج برجال حرس الحدود، ورغم أن الرقابة عُزّزت إلا أن الفلسطينيّين ظلوا في حالة تأهب ونضال تفيض نفوسهم غضبا، فكانوا يرشقون جميع المارين بالحجارة وزجاجات الملوتوف الحارقة، تلكم كانت

أسلحتهم الفتّاكة، كانت نظراتهم المنقطعة النظير عطشى إلى رؤية الدم وأجمل اللحظات تلك التي كانوا يلتقون فيها في موكب جنائزي فاخر بالوجع، ليشيّعوا فيه رفيقاً غادرهم حاملاً أمنياتهم ودعواتهم ورجاء الأمهات إلى السماء، كما لو كان رسولا مرسلا من الشعب إلى الرّب، تشيّعه الزغاريد ونشيد الإناث العذب حدّ التعذيب.

ازداد شأن الشوق خطراً، من حيث إنَّه الوحيد الذي لا يبالي بالأمر، وإن العهد الجديد ساعد على استقرار قرار قبائل الحمق، رغم أن الرّقابة ضيّقت مدى التّنفس، ظلت نفوسهم تفيض حقداً، جرحاً ما اندمل، وطبقاً شهياً من البرد لا يعوض لندرته، وكل شيء يتحول عن مساره حتى المصداقية، إلا فيما يختص بطريق الأغلال، تبخّرت الخطابات الرّنانة وقوانين الانتماء في الهواء، في منتصف الليل ومنتصف الرحلة كان الوجع يمارس خسوفه في الأكباد، ينجلي الوجع للصلاة ويرحل قبل أن يكمل ما بدأ، وصوت المدافع يحطّم كل فرصة للهدوء وأن يسدل ستار السكون. ننطلق من الفور لبائع الصمت، نشتري ما يكفينا مسافة ألف غصّة، وحفنة صراخ، تكفي لاختراق القهر، تدور الاسطوانة وتتكرر المأساة كل يوم، ونحن ما زلنا نردّد وننتحب على أشلاء النعوش. رغم كثافة نفثات الهموم والغموم، المحنة بفضل الله لا تدوم، وسرعان ما ينجلي سواد الليل بهمومه ومآسيه ليعقبه فجر الأمل والعمل، لينهض المارد المستكين في نفوس شبابنا الّذين أكرمهم الله بخصوصية الاستمرارية مهما ادلهمت

الخطوب وتناوبت على أهلها الكروب، هكذا كنا نقنع أنفسنا، فكان لا بدّ من مواجهة فاجعتنا رغم تواضع الإمكانات.

فمن يَتصفّح المُجتمع الفلسطيني بشرائحه المُتعدّدة، وفصُوله المُنوعة، يَجد أن أهم مَلمح يُمكن أن تَلتقطه العين، هو مَلمح السّقم، وتَكتُّل الهموم فَوق بَعضها، حتى بَدأ يتغنّى بالتّلاحم ويرقص حول نار أوقدها مجانين الزمن العاقل جداً، كنتُ أخشَى أن نصل إلى مرحلة لا يمكننا معها العيش دون الجنون.

والرّاجي عَفو رَبه المواطن البَسيط محمد لَيس مُستثنَى من قاعدة المهمومين، فهو أحد ضَحايا الوَلائم، وأسلحَة الدّمار الشّامل "السّقم"، وطَالما أن الإنسان يعيش في فلسطين، فهو يَتنقّل ما بين ثلاث عينات، ما بين عرس "شهيد" ومسيرة ومنفى، فما أن يدخل إلى عُرس حتى يخرج منه بدعوة إلى مسيرة تضامنية، يُلح أصاحبها مُؤكّدين على الحضور، ومُشدّدين على أن من يَتخلّف عن إجابة الدّعوة فهو خائن، ومن شَذّ فهو شذّ، فشذّ في نار التخوين، وإذا انتهينا من المسيرة والعرس وجدنا أنفسنا أمام الجدار الفكري، لا يَختلف كَثيراً عن العُرس والمسيرة، فكلاهما يَتّسم بالكآبة والبؤس، والعزاء يَسوده الصّمت والإطراق والتفكُّر، والجدار يسوده العقم وشعور مفرط بالقهر، نظراً لأن الناس تخلط بين مُسمّيات الدعوات والولائم، فقد أحبت ليالي أن تدفع زكاة سعادتها، باستخلاص تَعريفات الوَلائم التي وَردت في مخزون الأمم واللغة، حتى تَكون كثافة

السّقم تُساوي الكَثافة الوطنية، كانت تقول: أن تحب شخصا ما وأن تحب حبك له أمران مختلفان تماما.

ها هي ذي سنون تمرّ ومازال يقطن في أقصى اليسار مستسلما لحزن مرضه الذي ليس إلا جنون انصهار لِاستبقاء المودّة، لا يلوي على شيء كلما وجد نبضة قلّبها ونظر إليها مباشرة ثم ألصقها بصدره العاري مثل أم ترضع طفلها. إنَّ هذا أعذب استبقاء وأعذب انتظار أشبه بموسيقى ترافق يوما جميلا في حياتك ثم لاحقا تتحول إلى حافز مستفز للذاكرة تتمخض عنه صور قديمة تذكرك بتلك الأيام فتؤلمك أكثر، ولأن الذكرى التي لا تؤلمنا حين نتذكرها لا تساوي قيمة التّذكر والوقت الذي ننفقه في سبيلها، قالتها ليالي ذات يوم: فلترافقنا أكثر الأغنيات إيلاما، لأنني لا أريد لنفسي من بعده راحة بال، وليست لدي رغبة في تعبئة الذاكرة بلقاءات عابرة.

تلفّت يمينا وشمالا لعلك تخرج منها إذا وجدت ياقة أو ربطة عنق لقاء أنيقة فكّها وفكّ أزرار الذكرى ثم أخرج من صدرها وأوصده خلفك جيدا، إذا دخل الدخلاء من بعدك أتلفوا كل الأماكن، ولتحفر لكما تمثالا في قلب جبل صخري، ولتجعلاه مزارا إذا مرّ العشاق به قالوا: من هنا عبر الأوّلون، هنا تقاطرت اللقاءات الحزينة المتأخرة المبتورة، هنا استيقظت الساعة وما نامت، هنا بدأت نهاية وما انتهت.

كان لك في ذمتها موعد وها قد أدت الأمانة فهلا تركتها وشأنها تصلح ما أفسدت لتنبت أرضها عشبا أخضرَ، فحقولها منذ مات جدي لا تنبت إلا عشبا أصفرَ وأنت جئت أفسدتَ التربة، إن عدت ذات يوم في ظلام المدينة الدامس سوف تجد امرأة كانت تشبهها، فابتكر لك عطرا جديدا وسر في شوارعها بخطى حذرة صغيرة في وجل حتى إذا ما تعثّرت بدمها لا تسقطك أرض انتحارها ولا يثأر لها دمها.

أوّل مَا يُمكن التقاطه في وطني هو الحزن المستعجل ورداءة الأخلاق، هذه وَلائم تُسمّى "تحت الحساب". أمّا المسيرة أو التي تُسمّى دعوة تضامنية، والتي أنَا ومحمد وليالي وكثر من ضحاياها، لأننا مثل غيرنا دائماً مدعوون للمشاركة، فلا تختلف كثيراً عن الأعراس، وهيَ إحدى المصائب الكُبرى لدينا لأنّها تَحرق الأعصاب، تسمّى دفعة زيادة "فوق البيعة".

أهل فلسطين أكثر شعوب الأرض يَحتفون بالسّقم، ويُعدون له طعاماً خاصاً، وإنني الآن بتُّ مُتأكّدة أن آلَافا ممّن يَرتادون وَلائم "أعراس الشهادة" لا يَعرفون اسم الميت، أو من هي حبيبته، أو ماذا كان يحب، أو ماذا كان يكره، أو بما كان شغله في دنياه قبل أن يتوفاه الله، حتى خيارات الزواج كلها وقعت تحت ضغوطات اجتماعية أو سياسية تحزبية، ليس بيننا من هو محققٌ لذاته، كلنا حققنا نصف ما أراده المجتمع والنصف الآخر جاء ملائما للانتفاضة.

بعض الشوق لا دواء له، كما داء عصي على الشفاء، كلمات الحب الركيكة المعتادة العادية الباهتة لا تفضّ اشتباك الشوق والحنين بين الضلوع، مما ألزم اللسان أن يختلق لغة أخرى، أكثر عمقاً وأكبر وسعاً، أعنف شراسة، تطوق الأعناق، تلثم الليل بهمسة تلتهمنا بشراهة فوق الاحتمال. لا أحد يشتاق إليها مثلما يشتاق إليها شيخها، الحامل بكل آلامها حتى قحفة رأسه، شيخها هذا الشيء الذي يظنه الجميع وهماً كان أكبر حقيقة في حياتها.

كانا يجتازان أفنية الطرقات بخطى متأهبة في جو مهيب، يعبران الوحدة تلو الوحدة ويلوكان الساعات الهاربة نحو العدم، والوعد قصم عقْرَبَ الدقيقة الشاردة، تنبجس الأشباح من الضباب فجأة وتغيب فيه، فأوقد لها قنديل البحر أنيسا يؤسس ويؤنس طاولة انتظارها قبالة شاطئ جحظ العينين وفغر الفاه.

طال وقوفي يا محمد، تقلّبت في مكاني بالتّعب بالعطش بشوقي بنعومة الأردية فوق خشونة الوسائد بشخير الأحلام العجائز وذاك الطّيف الّذي ينام قربي ما حرّك ساكنا وما أيقظ بعضي!.. أيها الصدى شقّ أسماعي أستقبل منه همس الأطفال الصغار، مدلّلي انهض، انهض أيها الغجري، باعد ذراعيك وخذني إليك أخذة زاخرة بمطر هادئ، اصعد بي تارة واهبط أخرى في شوارعنا الحزينة، أثقلني بظلالك التصق بي التصاق الجليد بالصخر واترك مساحة للضوء، للضوء فقط.

هأنذا .. هأنذا أفعل..... هأنذا أفعل... هكذا كان يأتيني صوته في آخر الليل.

في كل صباح شتائي تهجر أسراب الحمام بلادي مع رحيل القمر، لتأتي مكانها الغربان بنعيق منذر بالخطر. "هكذا علّمتنا الجدات". قد يتّهمني بالشّماتة كل صاحب ذوق مزعج إلا أنني أحب شكل الغراب الشتائي وتشكّل أسراب الحمام المهاجر. فأنا أريد تصديق إنذار الغربان كي لا يُكَذّبَ اليقين جدتي، وأريد أن أُكَذِّبَ الفصول كي أصدّقك.

في بلادي كلّ شيء مختلف، فندخّن بنهم حتى التخمة ونحتسي فناجين القهوة وكؤوس الشاي بالنعناع، وبالنعناع لأنهم في بلادي لا يدركون قيمة الحبق.

عند أدراج الفلّ العتيق كم جلسا ينظران إلى المارين عبورا لغرض الوصول إلى غايتهم لا يكترثون بشذا الفلّ، لا يدركون رائحة خطاهم العالقة فوق الأدراج، لا يصل قرع كعوبهم طبلة السّمع، فإن سقط الفلّ أرضاً داسته قسوة مرورهم.

لو صَرَخَتْ في أقصى جهة الخراب وعن كثب كي تستنفعه لظللت تلك الطفلة الشقية الخاضعة لسلطانه، كان مجنونا شهيا محاطا بأوهامه، بَذَلَ منتهى الجهد ليكشف اللثام، وفي منتهى الاكتفاء أَضْرَعَتْ له الانتماء.

عاشقان مذعوران وثلّة حمقى، توالت مغامراتهما البربرية التائهة على رصيف متهتك كـقبلة سقراط، نغليها كي ننفذ إلى أعماقنا، ثم نمضي إلى النخاع حتى قحفة الرأس فدخلنا في غيبوبة الجنون بعيداً عن هذا الزمن العاقل جداً. لسنا نشبه في الحمق الدون كيشوت ولسنا نملك مساعداً مثل سانشو، صحيح أن بحوزة كلٍ منا إرث لكبير الحمقى، وحماقات مكتسبة وأخرى من صنع أيدينا، لكنّنا لا نحارب أوهاماً ولسنا نتعارك مع شياطين الرّغبة، إنما نرهب الأغبياء بصمت.

مدينتان ترسمانِنا بعيونهما رغبة مطليّةً بندى حلم آخذٍ في الاتساع، يحق لي أن أقول إنّه يشبه فتنةً تنسلُّ عبر إغفاءة حنين إلى كل مسامات الشتاء فتلقي بضياءٍ على وجه العشق الساهر منذ جدار.

ما يفصل بينهن شارع بسيط طويل يضيف ببساطته رونقا مميَّزاً يكسبك شعوراً مختلفاً عن سائر المسافرين ما بين سائر المدن الأخرى، مغمورين بالفرح والحبور ولذة السفر، وعند الحاجز العسكري تسكت اللهفة، يقف ضابطان يبدوان أرنبين مذعورين على مائدة الخطر التي أذاقت جنين سياط نيرانها بلا هوادة، كلما اقتربت منهما سيارة راغبة في عبور الحاجز هرعوا بثلّة من العساكر، فيعتلي قبّة الرأس جوهر التواصل ويسقطه أرضاً، ويدوسه العسكر، ذاك الجوهر الذي يشبه سفيراً يعمل من الأرض إلى الأرض، أو مبعوثاً منها وإليها، حاول أن تبقي على لياقتك اللفظية وشاعرية واسترسالها طيلة أحداث التفتيش وإجراءات العبور وظل متشبثا بالحبل السري الذي ربطه المجانين بين فتنة جنين اليتيمة وفتنة حيفا

الأرملة، وذلك لا يغيب عن الفطنة إلى حد كبير، فحين تفقد اللباقة تفقد الأمل في العبور.

كلما عبرتُ الحاجز تذكرت كلمات الطيار الذي اختفت آثار طائرته عند الحدود الجوية لمثلث برمودا كلماته الأخيرة: (نحن في عالم آخر...) كنت أرددها بلا انقطاع أنا في عالم آخر.. كلنا في عالم آخر.

أطراف جنين عبارة عن دكاكين لبيع الأثاث والأواني، والأخشاب والدهانات، وكراجات لتصليح السيارات، في كلتا الجهتين اليمنى واليسرى بضائع ملأت المحال حتى فاضت على الأرصفة، من حبوب تكدّست وأوانٍ بألوان متعددة، تحدّث عن الكم الهائل للأذواق المارة من هنا مما يسدّ جزءاً من الرصيف بحيث يصعُب على المارة العبور، فتلتصق الأجساد بالأجساد ويلتقي النظر بأنفاس الشارع، فترى بأم عينك الأرصفة الممرّغة بالأتربة وأوحال الذاكرة في قمّة ذهول المدينة.

أول ما يطرق السمع عند وصول أطراف السوق صوت القارئ عبد الباسط وقرع فناجين القهوة العربية رغم وجود ماكينات تحضير القهوة منذ زمن طويل، إلا أن تلك العادة طقس من طقوس عشاق القهوة لا يمكن التنازل عنه، صوت البائع يصدح في فضاء الأصوات (قهوة حلوة سادة ع الريحة يا سمرا سكّر زيادة) يصلك رغم ضجيج العربات وصراخ الباعة المتجولين، يطرق أركان الخمول ويضيف كلمات الثناء والاحترام لكل من ينظر إليه مباشرة علّه يخفي عنهم ضروب الشقاء، حيث تنبتُ

الخرافة ونستزيد في الاحتراق في أذهاننا المكدودة. فكيف للحب أن يكون من الخوارق الصادمة وفي ديمومة ذهول المدينة، كيف يمكن دحضه أو إنكاره إذا ما اخترق بلحظة أقصى اليسار لحظة أقسى درجات الحُنين إلى الانتماء!

مجرد رؤيتهم على هذه الحال من النشاط يُخَضِّب العين ويمنحك رؤى تشرق بشروقها الدنيا، مما يرسخ في نفوسنا تلك القيمة الإنسانية الأخلاقية لمفهوم تلك العلاقة ما بين البائع والشاري، فتجتاحك نكهة القهوة من خلف ألف سدٍّ وسدّ، وتخطيك كلّ مواجع الزمن وفيزياء المسافات، تغرقك حدّ إعمار النشوة، فتوغل سمرتك في ألوانها وأسواقها وشوارعها العتيقة كما لو أنكَ في قلب حيفا بفارق بسيط لكبر تأثير بسيط "اللاجدوى."

كانت تفرح فرحا جنونياً عندما تطأ بقدميها أرصفتها وهي بكامل (صعلكتها) تقابل أناسها الطيبين، وما أشهى ما يقدمون، ذاك الشعور الذي معه تشعر كأنك نلت حنيناً مضاعفاً كمن يحصل على مكافأة، وما أن يبدو عليك أنك من القادمين من عرب إسرائيل حتى يبدأ بمداهمتك باعة متجولون بعربات الخضار أو الزينة جاوزوا جسر القهر، عربات تجرها ثلاثُ عجلات تدفعها يدان خشنتان شققها البرد وأصابع مهترئة مثل خارطة الوطن، كنت أعجب من أين لهم القدرة على احتمال البرد وقيظ الصيف، وحين أدركتُ الأمر أجبرني حالهم أن أؤمن بأنّ القلق

كائنٌ يملك قدرة الولوج من كل نافذة، يسبقك إلى مضجعك وعنوة يسفك دم الأحلام.

سعيد المشرد أبو عيون عسليّة (سعيد التشيتشو) يدعوك للركوب إلى الوراء بإيماءة من يده وهزّة برأسه، يشعرك وكأنه ابتاع خطة مدروسة ليفرغ رأسه من كافة الشوائب التي لحقت به خلال السنين الماضية ومما ورثه من عاهات اجتماعية حولته فيما بعد إلى شخص لا يفكر على الإطلاق، كان يقوم بتلك الدعوة بإيماءة بهلوانية مثيرة للضحك والشفقة في آن، يصفق له الجميع لبعض الوقت قبل أن يعود السوق ليلتفت حوله وعلى من فيه، سرعان ما يتأرجح بهم هذا القطار فيسقط ويسقطون معه في وحل تخلفهم وجهلهم ونتانة أفواههم، ثقلاء حمقى عراة من الفضائل صغار في المثل ليسوا إلا غوغاء أذيال للدنيا، ومن أين يأتون فهم كقافلة حمير وبغال تحمل أسفاراً ولا تدري ما بها، برغم كل ما قد تحظى به من إهانة عند الحد الفاصل على أيدي الجنود الإسرائيليين إلا أنه لا يضاهي إهانة أبناء الوطن لك، في حين تصبح معرفة الألم بالدلالات اللونية والأبعاد الضوئية، وخط الأفق، أمراً مستحيلاً.

قلت لأمي: تمنيت الاستجابة لإيماءة سعيد ولو مرة واحدة تضامناً مع المجانين للوقوف بوجه زماننا العاقل.

فما كان منها إلا أن وبختني: استحيي، لا تخلي الناس تحكي علينا.

- يا إمي كيف تعتبرين مثل هذا التصرف صبيانيا طائشا؟

- قد يكون له الأثر الكبير على مستقبلك وأرى أنه من الممكن جداً أن يقف بوجه زواجك من أي شاب، كون التصرف غير لائق اجتماعياً، ويكفي ما فعلت حتى اليوم.

أليست مفارقة قبيحة أنْ يجاب سعيد بالسخرية ويعتبر الأمر عاديا جداً، بينما الإجابة التضامنية تصرفٌ صبيانيٌّ وإعاقة أخلاقية! وما الذي فعلت حتى اليوم؟ ألأنني أحببت ومتى صار الحبّ فضيحة وخطيئة! في هذا اليوم أدركت أن ليست أم ليالي وحدها من تربط الأقدار بالحظوظ وتقيس الأخلاق بناء على ما يراه الأكثرية أخلاق البنت الحسنة.

لاحقاً سمعت بتعرض سعيد لحادثة غريبة الأطوار، حيث تم اختطافه على يد خمس من النساء منهن المطلقات ومنهن الأرامل، واغتصبن سعيد حتى الألم، ثم ألقينه في الشارع المظلم ما بين الحياة والموت، حيث عثر عليه بعض المارة قبل فجر ذلك اليوم وتم نقله إلى مشفى جنين في حالة يرثى لها.

ثم اختفى سعيد مدة طويلة حتى ظننته توفي على إثر الحادثة، ربما أخذته عزّة نفس أو فزع قلبه، إلى أن جاء يوم وقيل لي بأنه شوهد في شوارع أم الفحم يقوم بذات الإيماء ويوزّع الدّعوات.

بعد شهرين من اللقاءات المتتالية لم يعد بمقدورها إبقاء الأمر قيد سر، ولم تكن ممن يطيقون العيش في الظلام والعتمة، فرأت ليالي أن تخبر أكبر إخوتها بأمر محمد وبحقيقة ما تشعر به نحوه بعد لقائنا الأخير، فوجدت تفهما كبيرا منه وتقبل الموضوع بشكل غير عادي، قياسا مع ردة فعل الآخرين التي توقعتها، حاولت أن تقنع نفسها بأن البقية من الممكن أن يتقبلوا الأمر على النحو الذي تقبله عاصم، إلا أن محاولاتها باءت بالفشل عندما ارتطمت رغبتها بموقفهم الحاد، كانت قد توقعت ردة فعل عنيفة لكن ليست بذاك الحجم الذي معه لم تتمكن من احتمال ما تمّت ممارسته عليها من قمع ومنع وحصار وكأنها زانية وجب إقامة الحد عليها.

مما زاد الوضع سوءًا ثورات غضب حسام الصاخبة، يعلنها كلّ حين عليها فمن مفهومه هي خانت الأمانة وتعرضت لشرف العائلة، لدرجة أصبحت أمها تتخذ موقفا حياديا سلبيا في القضية ككل الأمهات.

كأني لستُ ابنتها يا سحر، صرتُ أشكّ في نفسي، وربما رأت أمي أن تبعد غضبه عنها بتلك السلبية، ومع ذلك فإنها حاولت قدر المستطاع إيجاد حلّ لفضّ النزاعات، كثيراً ما كانت تتحول لهجته إلى ما يشبه التهديد.

- انتبهي جيداً، إن علمت أو شعرت أنكِ عدتِ للحديث مع هذا السافل المنحط سوف أقتله، ثم ما هو الدليل الذي نملكه على أن اللعبة التي يلعبها مصدرها كما تقولين الحب؟

- إن الله والموت هما الحقيقتان الوحيدتان يا أخي والبقية ضرب من وهم.

في تلك اللحظات المفزعة المرعبة كنتُ أتوق للهرب إليه، إلى أحضانه حيث كنت أشعر بأنني فلسطينية حد النخاع، وحيث اكتشفت أنني أنثى وأن الرجولة ليست تقيم بين الأفخاذ، كما علّمتنا الأمهات والجدات "الرجل ذئب بين ساقيه سلاح فاحذريه"، ومع ذلك حاولت التعايش قدر المستطاع سلميا مع الحالة، مما سبب لي القلق الدائم وتوقع حدوث المشاكل، تعلمت كيف أروض جموح أعصابي، وأهنأ بوجه الشمس، فللفجر هنا وجه آخر غير الذي اعتدتم عليه، للصباح هنا هيئة أنثى تتمطى على سرير أنوثتها، كـعاشقة ضاجعت رجولة الكون واستفاقت على صدره العاري إلا من غابات صنوبر.

## محمد

بدأت علاقتهما عام 1997 كانت علاقة صداقة عفوية عادية جدا

شاب فلسطيني من 67 تاجر في السابعة والعشرين من عمره، لم يسبق له أن تزوج. قمحي البشرة، ملامحه حادة ناعمة ورمشه طويل، عينان واسعتان مثل وطن، و إن كانت كلها ملامح توحي أنه رجل ليس مثله في هذا الزمان رجال، تفاصيله توشي بمذاق البحر، طازج النظر مغرٍ شهي حتى الغرق.

تعارفا مصادفة كانت ترافق والدتها إلى السوق لقضاء مستلزمات المنزل وفي كل مرة كان يقف قبالتها بصمت، وكانت تفعل الشيء نفسه، كل منهما ظن أن الآخر متكبرٌ، وبقيا لا ينبسان ببنت شفة طيلة ثلاثة أعوام، أحدٌ لم يلحظ ذلك الحب الصامت إلى أن جاءت المصادفة وشاهدت والدتها تلقي عليه السلام. فاجأها الأمر إلا أنها آثرت أن تنتظر عودة والدتها.

- من يكون ذلك الشاب الذي ألقيت عليه السلام عند وصولنا؟

- هذا محمد ابن عائلة كانوا جيراننا منذ زمن بعيد، كنتِ صغيرة لا تتذكرينهم.

كانت فرصة لا تعوض لأمي، راحت تسرد من خلالها عليّ الحكاية من أولها حتى انتقالنا وعودتنا إلى السكنى في حيفا، استمعت إليها بشغف دون مقاطعة مستعرضة خصال أبيه الطيبة وهدوء والدته، وكنتُ مستمتعة جدا بحديثها إرضاءً لغرور الفضول.

في زيارتي التي تلت تلك المصادفة اقترب مني محمد وقدم لي القهوة وقطعة حلوى بمذاق العسل.

- ماذا عن فيروز؟

- تعيدني إلى ذكرياتي دون أن تسبب لي البكاء.

- معذرة نسيت أن أرحب بكِ وأعتذر عن المرات السابقات، علمت أنكِ ابنة جار قديم، وكي أكون أكثر صراحةً، ظننتك إنسانة متكبرة، فقط في زيارتك السابقة اكتشفت أنكم كنتم جيراننا قبل عدة سنوات، لكني لا أتذكرك، أتذكر فقط إخوتك الأكبر .

صمتَ لبرهة ثم أمسك بخصلة من شعري: هل تأذنين لي الاحتفاظ بخصلة؟

لم يكن بمقدورها أن تنكر أنَّ فعلته تلك أدخلت شيئا من الفرح إلى القلب حاولت إخفاءه، وأكملت فنجانها ثم اعتذرت مغادرة بحجة أنَّ عليها العودة و الاستعداد لامتحانات نهاية الفصل والتي كانت من المفترض أن تكون مع بداية الأسبوع، والحقيقة أنها ما عرفت بما ترد به عليه، وكيف تتعامل مع أحاسيس تداهمها للمرة الأولى مكتظّة بزخم ورعشة، غادرت دون أن تترك له مجالاً للاعتراض.

ربما لم تكن لدي رغبة في البقاء أصلاً، لطالما عرفتُ أن شيئا جميلا بيننا لن يكتمل، ولا أنكر أنني كدتُ أطير فرحا لذاك الشعور غير العادي والذي كاد يغمرني، غادرت ونفسي ترنو إليه وائدة جميع الأسئلة الحمقى العائمة تحت جلد الأيام.

توالت اللقاءات وتعاقبت الفناجين وفيروز تطلب الناي.

لاحقا كان لمحمد تأثيره الكبير على مجرى حياتها وتغير طابع وأساليب تعاملها مع الآخرين وتغيرت أناقتها، ليالي لم تكن ترتدي ملابس النساء، كانت تخشى إن لبست أيًا منها أن تتهم بالأنوثة فهذه تهمة لا براء منها في بلادي، لم تكن من صنف النساء اللواتي يعتنين بمظهرهن الخارجي خوفا من القيل والقال وانتقادات الأهل، هكذا علمونا أن نخجل من أن نكون كما نحن، حتى أنها قلمت حاجبيها للمرة الأولى في عامها العشرين، ما زلت أذكر أول إصبع أحمر شفاه حصلت عليه هدية من زوج خالتها في عامها الواحد والعشرين والذي ما زالت تحتفظ به حتى الآن، فالاحتفاظ

ببقايا الأمور من هواياتها المفضّلة، ربما لكونها تمعن في إيلام الذات أكثر من أيّ إنسان عرفته على الإطلاق.

- لم لا تضعين أقراطا في أذنيك؟

في البداية ضحكتُ ضحكة فيها مسحة ألم ثم قلت.

- أفكر لو أني كنتُ بشعة جداً لكنت أكثر حظاً مما أنا عليه، أنا المؤمنة دوماً وقبلهم بجدوى الأشياء والقضايا الأكثر نفعاً للعام وما يتعلق بمصالح الآخرين، وفي الوقت نفسه لا أصلح لأن أكون مسؤولة عن إطعام قطة، ومع ذلك يحملونني أوزارهم وأنا أصغرهم تصور أني لا أملك أن أختار!

- ستلبسين على ذوقي هذه المرة وقام من مكانه تناول من على أحد الرفوف شيئا مده إليّ .

- ما هذا؟

- بنطال جربيه.

انفجرت ضاحكة مرة أخرى، كيف أرتدي مثل هذه الأشياء أمجنون أنت ؟

إلا أن نظرة واحدة منه كانت كافية لإقناعها بوجوب قياس تلك القطعة الصغيرة من القماش، شعرت بالخجل الشديد من نفسها عندما

دخلت إلى المكان المخصص للنساء وراحت تفتش في الزوايا عن كاميرا خفيّة تم زرعها بعلم محمد أو دون علم، فهكذا علّمها إخوتها ألا تثق بالذئاب، وحين رأت ما ظهر في المرآة الطويلة صدمت واصطبغ وجهها بالألم، كادت تفرّ من عينها دمعات حارقة إلا أن صوته جاء يستعجلها، لملمت بعضها وأزاحت الستار، ولكن من فرط الخجل أعادتها سريعا قبل أن يتمكن من النظرة الثانية، وسريعا نزعت ذاك اللباس عنها كمن تحاول التخلص من قاذورات علقت بفستان سهرة، بعد أن أعادت غلظة الرّجولة عادت لتجلس إلى كرسي قريب من المكتب، لملمت شعرها المنثور والعبث لا زال يعربد على قسمات وجهها الأسمر النحيل بخجل، فضحت أمري لا محالة، هكذا قالت لنفسها، إلا أنَّ محمداً يتمتع بلباقة عالية، حاول بطريقته تغيير الحالة ليشعرها بشيء من الأريحية، أدار جهاز الموسيقى ولأنه يعلم كم تحب صوتها جعل أولى الأغنيات (أعطني الناي وغني).

- تخيّل أن يجيء صباح أحد الأيام ولا تجدني؟ عمّ الصمت في المكان لبرهة ثم وقبل أن أدير له ظهري مغادرة أضفت: عندها عليك أن تنتظرني عند ارتعاش أول خيوط الضوء.

## جبال الجلبوع

تلك الجبال الحميميّة الدافئة، كان لها النصيب الأكبر من لقاءات محمد وليالي قبل الانتفاضة، أما بعد فكانت اللقاءات في غابات الخطر، والتي لم يكن ليجرؤ على دخولها ليلاً وفي تلك الظروف الصعبة إلا رجل وامرأة كل واحد منهما أكثر جنونا من الآخر، فقدا الإحساس بالخوف، وغير عابئين بالرصاص البارد.

بمجرد مدّ النظر إلى مداه تمكنك قمّة تلك الجبال من رؤية القرى الفلسطينية وبيسان، وغور الأردن الممتدّة إلى نقطة تصل الأرض بالسماء، وأحراش العفولة، عندما تقف من عليها فإنك لتشعر أنَّ بالإمكان مد اليدين لتطال السماء بأطراف أصابعك بكل سهولة، تماماً كما لو أنَّ السماء جزءٌ من لوحة مصلوبة على حائط مباشرة نصب عينيك.

هنا في الجبال، يحلو التمرّغ بالتراب، واحتضان المدى الواسع وسع قلب الكون.

مضى الزمن يجرجر بعضاً منها ومنه، هكذا توالت اللقاءات في جنين والصمت سيد الترقّب، إلى أن جاء ذاك اليوم.

اتصل محمد بليالي طالبا منها مرافقته إلى مكان هادئ لتناول العشاء أو الغداء، متحججاً بلزوم أن يلتقيا للحديث في أمر غاية في الأهمية ولا يمكن تأجيله إلى حين موعد زيارتها القادمة إلى جنين، واتفقا على اللقاء.

في آخر الليل يكتمل الوجع لا فواصل بين أناتها إلا في الأسى المُكدّس وهو يومضُ كلّ خيبةٍ واعدة في أفق صباح النفير وأحاجي الليل المرير وهما يتشكّلانِ التفاتة حلمٍ يُسمّى زوراً "وطن"، يشتعل النارنج، ويتغلغل في الجسد حتى العظام، وعلى استعجال وحمق يغادر في خفة الطيش حاملاً حلماً مهترئاً، يبكي مبرراً لنفسه ليستبيح صفع الغفو على محيا الليل بدلاً من مسحة حانية على سكون الجراح.

تعودنا وقتئذ وفي آخر الليل أن ننتظر مثل هذا الاجتياح والإجلاء كلّما انتزعوا قشور ذاكرة فاقدة التركيز بين ذقنها واللحى، وبوصلة النجباء مقفلة الأمنيات لا يرثى لحالهن، فهن في أحسن حال طالما وجدن مكانا في المنفى.

جاء يصطحبني في حدود الساعة الثانية من بعد ظهر ذاك اليوم، في فترة الاستراحة قبل العودة لأكمل بقية المحاضرات مع دكتور الكيمياء، كان محمد مثقلاً بالجراح خائر القوى، بدا عليه التّعب والتّشرّد، توجهنا إلى

مطعم "بهارات" الواقع في أول الصعود إلى جبال الجلبوع، مكان قريب يُمكّننا من الهرب عن أعين البشر، وتسنح لي فرصة العودة قبل بدء المحاضرة.

موقف غريب واستثنائي جاء يدس تحت خجله وردة جورية خمرية، مدَّها إليّ ومشينا متشحين بدهشة الخطى الواثقة، في حين كثرت الأرجل الحائرة على عتبة اللقاء، كان لديه إحساسٌ قويٌّ أنها تحبه، هكذا قال، لكنها لم تقلها لينتشل ذاته من الخرافة والمعتقدات التي ورثنا عن السلف والتي قرآ وسمعا عنها من الرّفاق.

- ابتسم يا محمد، تختفي الخرافة مثلما اختفى قوس قزح.

وسط غابات تكسوها أشجار الصنوبر والسّرو وشارع ضيق لا يكاد يتسع لمرور سيارة واحدة في كل اتجاه، كان يكفيني معه دفء نيسان كي أرى كل شيء يدعو إلى التفاؤل بيوت الزعتر المرغمة على النبات والميرميّة تراقص العصافير من حولها مُكرهة.

- إنَّ مجرد الولوج إلى هذه الغابات يا ليالي يجبرك على الدخول في صمت الدهشة للحظات قبل أن يعيدك صفير الريح وحفيف الأشجار إلى الواقع الجميل، يأكل أوجاعنا، ويبقى عالقا في الذهن، جمال يطرق أبواب القلوب المشدّدة، وفي منظره آية من آيات الجمال.

حمل المكان طابعًا قروياً فاخراً بالأثاث الخشبي، بُنِيَ بجذوع وألواح كبيرة تستند إلى الجبال ثم جعلت الموائد امتداداً للجدران، أقبيته مصنوعة من أقواس وسقّالات عريضة مرتفعة تصل أطراف السقف من أقصى الجدار إلى أقصى الجدار، منظر يراه البعض بنظرة الحياة المدنية شيئاً سخيفاً، مع أنَّ مرآه الخارجي لم يكن ينمّ عن شيء من الجمال إلا أنَّ الداخل حميمي وهذا كان أجمل ما فيه وكل ما نحن بحاجة إليه.

قبل أن يحرّك لها كرسياً لتجلس إلى الطاولة، نظرت إليه باشتهاء قاصدة إزاحة رداء الحياء عن النظر مما سبب له الارتباك الشديد إلى حدٍّ لم يستطع معه الاحتمال، فما تعود منها هذه الجرأة، أسرع يعيد الكرسي وغادر معتذراً بحجة غسل يديه، وافقته بإيماءة فيها من مكر النساء، أرادت أن لو تقول له: ليس موضوع غسل اليدين يا محمد بل هي نظراتي التي قالت لك ما لم أقله حتى الآن، لكنها لم تفعل.

انشغلت في غيابه تلملم شتاتها محاولة التركيز أكثر في اللقاء واختراق عمق أفكاره، فما لم يكن يعلمه أنه كان بالنسبة لها مشروع تحد كبير عدا عن كونه حبيبها السري الممنوع، كانت تعرف مسبقا أنّ مجرد فكرة حبه تشكل خطأً عريضا أحمرَ بالنسبة لعائلتها، كما كانت تعرف جيدا أن عائلته لسوف تكون لهم نفس ردة الفعل لو علموا بأمر علاقتهما، وبالرغم من ذلك كانت تقول: لأنه لن نجتمع لا بد أن أعيش معه كل لحظة وأهنأ

بها كأنها لحظة ولادة فرح لن تعاد، ولن أسمح لمخالبهم أن تمزق جدار قلبي ولن أنصاع لأية أوامر بعد الآن.

كانت الأحاديث بين الجيران في تلك الفترة تقوم على حادثة تتكرر في بعض العوائل التي زوّجت بناتها لشباب من خلف حدود 67، فلم نكتفِ بقهر الاحتلال إنما كان علينا إيجاد طرق أخرى للقتل. فمجرد تحصيل أولئك الشبان على الهوية الإسرائيلية طلّقوهن أو هجروهن قسراً بعد أن أنجبن منهم ولداً أو أكثر.

ضفّاوي تزوج فتاة من عرب إسرائيل!

عنوان مثير للغيظ إضافة إلى نظرة أبناء الضفة لنا ونظرتنا إليهم، فهم يرون فينا الإسرائيليين ونحن نرى فيهم الإرهابيين .

كنا نصمت عن هذا الحديث ونتكبّر ونتعالى على ذواتنا ونأبى الاعتراف حتى بيننا وبين أنفسنا بأن ثمة أشياء صغيرة في الحياة تجرحنا وبأننا نألم ونرغب في البكاء بشدّة. نتجاهل ضعفنا ولا نعترف به أصلاً، نعيش في كبتٍ حتى تكون نهايتنا جلطة دماغية أو سكتة قلبية أو الجنون، لذا فنحن أقل الشعوب تصالحاً مع الذات صدقَ قول وفعل.

عندما تزوّجت خديجة من علي ابن طول كرم، انطلقت راكضة باتجاه القافلة، قافلة الزّواج، طار عقلها خلف عليّ الشاب الأسمر الوسيم، صحيح أنه كان يصغرها عمراً لكنه كان يبدو رجلاً ذا عقل ووعي كاد

يكتمل، وكانت تظلُّ تقول له: تلك الطّلة يا ظريف الطول في تساوي الأمشاج تساوي عندي العمر ما مرّ منه وما تبقّى. وبعد مرور عام على زواجهما بدأت تتساقط أوراق التوت لّما تجلّت حقيقة الهدف، تمدّدَ الحُلم تحت ظلّه مستلقياً يحدّق في سقف رطوبة، ليصبح هذا الزّواج ترابطاً يضيّق الخناق، وسكَتَتْ بدورها كبكماء إلى أن اكتمل العام الثالث على الزّواج ففارقها دون خبر، كأنما ما كانت ولا كان، وكأن الطفل الذي بينهما دمية من خشب. خمّنت نهاية قبيحة لكنني ما خمّنت نهاية كنهاية علي وخديجة، فقد جاءت كفرار شاب من عشيقته بعد سماع خبر حملها، كـكومة هموم، كـتراصّ بيوت القشّ والطّين، كـترامي الأكفان، كـانهيار الجبال الصّخرية، كـكُفر بعد يقين، ويح هذه النهاية العنيفة كم تزعجني فكرة المتابعة، لأنّني لن أنال شرف التوجع باللحظات الأخيرة.

لعبة الأمس تعرية بكماء إلى أن يكتمل الوجع،

شدّ إليك المحبرة إلى أن يفنى الصمت، إذا بلغته الأوامر اختلط الغبار بدمي ليكون أمشاج بكاء منزٍّ في حركة دؤوب فوق أرض الملعب ليسهّل مهمّة القضاء، وأيّ كلام ثوريّ يخرجك من اللعبة ويصفق الباب خلفك فتغرب في وجه الغياب.

كلّما مررتُ بخديجة أو مرّت بدورها بي، طأطأتُ رأسي مبتعدة عنها فقط لأنني لم أجد كلمات تناسب لأخفّف بها عنها، كنتُ في المقابل أعلم في قرارة نفسي أنها متضايقة من علاقتي بمحمد، فتجربتها مع علي جعلتها

تبني أفكارها بناءً على تجربة خاصة، كذلك لم تقدر على طردي من الحي، لكنني كنتُ أشعر بشماتتها كلّما تقاتلتُ مع إخوتي بسبب محمد.

أعادني إلى الواقع عطره الذي ما إن اقترب مني حتى ملأني، غابة تفوح منها رائحته كأنه لزق بها، ليشعرني بأن التّقارب بين ياقة قميصه وشفتي بلغ مبلغه. كالتبغ الفاخر حين يعبر الطريق إلى الرئتين آخذا معه أنفاسي، كان وجهه يوحي بأنه مذعورٌ متعثّرٌ في أسماله، بعد لحظات دخلنا في سيمفونية صمت بحجم دهر، راح ينظر إلى العاملين بعينين جعلهما الانفعال حمراوين حولاوين، تَنبّه لأمر وجودي ثم سارع في الحديث سائلاً: ما بك كالطير المختبئ في عش الظلام؟

لم أشأ الإجابة عن سؤاله فقلت له في محاولة للهرب: أفكر في قص شعري فما رأيك؟

- لكني أحبه لا تقصيه من أجلي، ومرر أصابعه بين خصلات شعرها بلمسات طفيفة قائلاً: تذكري أنني عبرتُ من هنا تاركاً عطري.

- وهل أنا شعري؟

- لا، ولكنكِ أجمل بسواده وطوله الذي يعطيك أنوثة وأصالة الزيتون.

أردت سماع تلك الكلمات منه، أحبُّ الإطراء ومَنْ مِنَ النساء لا تحب، بخاصة إن جاء الإطراء من رجل مثل محمد.

- ألا نأكل وتخبرني بما أردت، لا أريد أن أتأخر عن محاضرة الكيمياء، كما تعلم هذه فترة امتحانات وعليَّ حضور جميع المحاضرات.

لم يكن أمامه سوى أن يوافقها رغبتها والإسراع.

صمت لبرهة ثم أعاد على مسمعها ذات السؤال وهي تتناول أول ملعقة من صحن شوربة الفطر التي كانت قد اختارتها لكليهما.

- ما بك كالطير المختبئ في عش الظلام؟

نفضت عنها بعض الحماقة وقد كانت تعلم أنَّ جميع إجاباتها لن تصل به إلى يقين،

- مشكلاتي يا عزيزي دون حاجة ناجحة، أن أعامل أصدقائي بعفوية وسهولة وأن أشرح لإخوتي الفرق بين الحب والزمالة والفارق بينهما، وأن أشتري حاجياتي دون الأخذ بذائقة الآخرين الفظيعة، كلها أمور لا تعني الكثير لكنها تمنحني شيئا من الاستقلالية وقليلا من الوحدة، وعندها يمكنني أن أتخذ قراراتي دون أن تصدر متأثرة برأي الآخر، كما لن تحمل أي تحفظ، لأنني عندها سأقول الحقيقة وكل الحقيقة دون الخوف

على مشاعر أحد، لكن مجتمعنا العربي يحتاج دوما إلى المجاملة كـحاجة المصاب بألم شديد للموروفين القاتل للإحساس.

توقفتْ هنا لتكمل طعامها، بعد أن تأكدت من أنه أدرك أن هذه الجالسة قبالته ليست مجرد امرأة عادية وأن في جعبتها الكثير مما قد يسقطه في وحل أرضه التيه، لكنه فاجأها عندما قال:

-تعلمين؟ أفكر بمشروع آخر إضافة إلى حبك، فقد صار لزاما عليّ أن أفجر براكين جنونك كي تثوري وتتمردي حتى لو كان على حسابي.

- حبك! أهو اعتراف حرفي إذا؟

- إذا هبط عليكِ طيف فجأة.

- كثير ما يفعل في مثل هذا الموسم.

- قومي له وأقيمي الولائم، وليمة للنظر فحسب، ووليمة لآخر الليل وآخر قطرة مطر لهذا الليل، وإياكِ أن يعتريك الصمت، ولسوف يأتيكِ في الليالي القادمة طالبا وليمة واحدة "الموت رجما بالقُبل".

- هكذا إذاً نموت شوقاً، رجماً بالقبل أو إحراقاً بالضّم.

بعد ذاك اللقاء الأول صار يدعوها في كل فرصة يجدها لن تعوض في استنطاقها متحرّشاً بها مثلما تتحرّش العصافير بأغصان الشجر، وقد

بدأت بوادر تحفيز الاشتياق تُطلّ من النافذة فيما يشبه الرؤى والأحلام، بل تمادت لتطرق الباب فيما بعد!

- سحر لو كان الأمر يتعلق بالاشتياق لهانت المسألة.

- المشكلة أنّني لا أستطع النوم في أحيانٍ كثيرة جرّاء الحديث وسِلال الهمس التي بدأت أخاف وأخجل من سماع أناي لها، كنت أنسل برفق محاولة أن أعرف أساس المشكلة والخلاف لعلّي أُصلح بينهما لكنّي فشلت ليس في الصلح وإنّما في معرفة سبب الخلاف، فكلاهما مكابر وعنيد.

- تلك، هي لعبة الشوق باحتراف يا ليالي!

- تباً كم كنت حمقاء جداً وفكري أصم، فكلّما سقطت ورقة خريف عريت أجزائي، وكلّما اقتربَ الشّتاء تورّطتُ فيه تجرّداً من عرواء القبيلة، فما الّذي يقرِّبني منه ويُبعدني عن طول العناق؟

- كاد كل شيء ينسينا دفق الدّماء والأشلاء التي كانت تنتشر على طول الجدار، على بعد أميال فقط.

## ضفة 67

الفلاحون الذين يعودون من العمل في القرى اليهودية المتاخمة على حدود الخط الفاصل ما بين الضفتين، حاملين سلالهم المملوءة بأنواع عدّة من الخضرة أو البرتقال، يجرون أثقالهم يستحثون الخطى بترانيم أغنية حفظوا بعضاً من كلماتها من ليلة عرسٍ أو مظاهرة حماسيّة، يتمتمون بصوت مختنق ولا يتكلمون إلا إذا دعت إلى الكلام حاجة. وعند وصولهم الحاجز للإجابة عن أسئلة حرس الحدود وهم يحملون عصياً يلوّحون بها في وجوههم مهددين، وما إن يتخطوا الحواجز حتى ترى الشحوب في وجوههم وانقباض أفكاكهم، يديرون ظهورهم للحرس ويركلون الحصى غاضبين تدور عيونهم ببطء ومشقّة بنظرات ناقمة وقد أصابتهم حمّى القهر يلصقونها ببعض حتى تكاد تَسمعُ أنين النظر وتجزم أن تحته أنيناً أقوى، فمنذ أدركوا الحقيقة تسلّلَ الحقد إلى قلب الدنيا فترسب اليأس.

عندما يعيش الفلسطيني هاجسا يذهب به بعيداً عن لغة الوجع المتوفرة في القواميس متخذاً شكلاً جديداً من أشكال الاحتمال وحمل الرّسالة، فإنه يحترق كمدا ثم يجعل الاستغاثة تأتي على لسان المعتقدات لا على الواجب الديني تجاه أرض المحشر بعدما فقد الأمل في احتمالية مجيء (الجيوش العربية) وتحريره من تلك القيود القمعية القميئة، لكن النداء تبعثر في فضاء جليدي أصمّ، فتغيّر شكل الخطاب خصوصاً بعد عودة العائدين، الذين زادوا الأوضاع سوءا، وأصبح النداء أخرسَ، كأنما ننادي في غيهب جب عميق.

تجويع الشعب وحشره في خانة المحك جعل الخطاب يختصر في "النجدة، أنقذوا أرواحنا" إبقاء المواطن قيد الحياة هو الهدف وليس تحرير أرضه هدفا يستحق أن يذكر.

إذا كان من حق الوطن على المواطن اتّصافه بالصدق والأمانة والاعتزاز بوطنه، بل وحتّى الموت في سبيل الذود عنه، فإن من واجب الوطن تجاه المواطن أن يكشف تفاصيل كل عملية فساد تؤرّقه، وتبعث على قلقه المتواصل، لا لأنَّ أموالاً عامة طائلة قد أُهدرت في غير وجهها فحسب، ولا لأنَّ الأموال القادمة من الدول الداعمة أنفقت على المخنثين، ولكن لأنَّ المفسدين قد أفلتوا بدون عقاب، بل عاشوا حياة باذخة لا يستحقونها كونها من سُحت خالص، وحرام واضح.

في نهاية كل يوم كنت أسجل خيبتي وسؤالاً: أترانا حقا كنّا الحد الفاصل ما بين الـ 48 و الـ 67 واللاجئين في الدّول المجاورة؟ فيلزمنا السؤال محاولة إزاحة الغبار عن أفكارنا استجلاءً للصورة .

أن ننظر إلى واقعنا بشكل نقدي يعني ذلك أن نعرّيه من ألبسته الأيديولوجية السميكة، وينبغي أن ننظر إليه من خلال منظورات لم تعرف من قبل وذلك لكي نقدم صورة أخرى غير الصورة السائدة عن واقعنا، أو عن الصورة المتبادلة بين العرب والغرب عن واقع العرب، كما لا يمكن أن نظلَّ تحت رحمة التصور الأيديولوجي الذي تحكم وما زال يتحكم بنا، عزاؤنا أنَّ الأزمنة لا تموت فينا باقية رهينة الأفق وإن طال سباتها. ونوقع جميعنا على أخمص كل دقة ساعة خيبة أخرى.

## ضفة 48

كنا نشتري الجرائد لمعرفة إذا حصل تغير في الحد الأدنى للأجور أو للبحث عن شعاع وظيفة لا تخضع لشروط حملة التجويع، فعادة ما نجد أسفل الإعلان من ضمن شروط التقدم للوظيفة (فقط لمتحدثي اللغة الروسية كـلغة أم، ولمن أتم أداء الخدمة العسكرية) حتى أسماء الموتى ليست بتلك الأهمية ولا للنظر لنجم الصفحة الأولى الأوحد ذي الشفة المشرومة الذي حرك آلاف الآراء، يتحدث بسوء عنا وعن جارات لنا يتهددن أمن المنطقة ويأكلن الثريد لا نملك لفتنتهن عنا محيصاً.. وجب غض الطرف أو إزالته وكلاهما أقرب للتقوى، تلك حرب سممت العقول، تفتك أكثر من سلاح ناسف وقنبلة موقوتة، فالرصاصة وإن قتلت فستقتل فردا واحدا فقط، أمّا الجوع والنقص والفكر السيئ تؤلم بهم إنساناً وتخضع بهم آلاف العقول، ولا يفوز إلا النائمون في زمن عاقل، مما يعني أنك وكعربي ليست لك فرصة لدينا، ومما اضطر البعض للتقدم إلى الخدمة العسكرية في صفوف جيش الاحتلال للحصول على نصف حقوق

مواطن ونيل مساحة أوسع لفرص العمل، وحتى هذا السبب لم يكن كافياً للخيانة، فالجوع أرحم لأن فيه شرفاً دون وسيلة تبدو مثل العذر القبيح.

حياة المواطنين الفلسطينيين في الضفتين لا تقلُّ تعقيدا عن وضعهم كشعب محتل، أساليب تعاملهم مع الحواجز والمنع ليست أشد قسوة من طرق تعاملهم مع بعضهم البعض، فهم لا يتقنون أفانين التعامل معا كـجسد أناني تفرغت كل ألوان الغطرسة في صوت أبواقه وأنوارها المتلامعة الملتاعة على بعض.

نجحوا في زرع بذور الفتنة بين الإخوة الفلسطينيين مما أضعف تمكينهم من الوقوف بوجه الكيان الصهيوني.

كثيراً ما كانت تسألني ليالي: ما حاجتنا بوطن يفرخ مواطنين بصلاحية تاريخ انتهائها يحدده توجهك الفكري أو السياسي أو الديني أو موقعك الجغرافي، أو بقوائم سوداء إن اقتضت حاجة القيادات المؤتمنين؟

لم أملك لها جواباً، لكنني كنت أراه في حبّها لمحمد ولم أستطع أن أريها الإجابة فقد كانت تعيشها بشغف.

صرنا أربعة شعوب نعيش فوارق وحواجز كثيرة كبيرة الأحجام جعلت من التجارة والزواج هما الوسيلتين الوحيدتين لخلق جسر للتواصل ما بين الضفاف، ووجد البعض في التجارة نوعاً من التسلية ومضيعة للوقت ليس إلا، لكنها كانت للبعض الآخر مثل محمد وليالي

همزة الوصل الإلزامية، فبرغم تشديد إجراءات المنع وجعل الضفة الغربية منطقة أمنية معزولة إلا أننا كنا نجد طرقاً لم يعرفها صهيون في حينها، ورغم ارتفاع تكلفة تلكم الدروب إلا أن الساعي من أجل الوصل لم تكن تعنيه التكلفة إنما غايته النتيجة وحدها.

عانينا المرّ في تلك الطرقات الجبلية الخطرة جداً، وكنا نفرح فرحا خرافيا عند وصول أطراف القرى والمدن في الضّفة، فتدغدغ كل الأحاسيس رائحة القهوة وأصوات الباعة المتجولين مدعاة للسعادة والشعور بالنصر، كنت أرى الفرح يتقافز في عينيها كلّما دنونا في نهاية الطريق.

مما كان ينسينا ما تكبدنا من عناء في الوصول، كانت القاعدة تقول أن أكَسِّبَ ابن ديني خيرٌ من أن أشتري من يهودي وإن كان بأقل تكلفة. إلا أن مشكلات أخرى كانت تواجهنا، حاولنا جهادها، فشل البعض ونسبة كبيرة نجحوا، من بين تلك المشكلات أساليب تعامل أبناء الـ 67 مع أبناء الـ48 والعكس، توقفت مع ليالي في أحد المحال لشراء عباءة لأمي فطلب ثمنها 250 شيكلاً، في الوقت الذي كنت أدفع إليه بالمبلغ دخلت امراة يبدو عليها من سكّان المنطقة فراقتها العباءة التي اشتريت، فطلبت مثلها وسألت عن السعر، أخبرها صاحب المحل بأنَّ سعرها 100 شيكل، تعجبت لأمره فسألته ما السبب وما الفرق بين العباءتين حتى أدفع ثمنها 250 وهي 100 ؟ فقال أنت من الـ48 وهي ابنة البلد، كأنني سائحة من عالم آخر، هي بنت البلد وأنا الإسرائيلية يا للوقاحة. كدت أصفعه، لكن

ليالي أمسكت بي وأخرجتني من المحل بعد أن ألقيت العباءة في وجهه واستعدت نقودي.

لاحقاً توقفت عن شراء أي شيء من الضفة، كما صرت أتحجج بأي شيء كي لا أرافق ليالي، فكانت ليالي تحثني بقول: إنَّ الفكرة وأي فكرة كافرة حتى تُذلّ الطريق فتروّضه إلى التّطبيق معلنة إسلامها. فرافقيني ندخلها الإسلام.

الأمر كان يحدث علنا دون أن يشعر البائع بتحرج إن لاحظ ذلك أي من المشترين، الأمر الذي نتج عنه انخفاض في عدد الزوار وارتفاع وتيرة الجفاء مما أضعف الحالة الاقتصادية لكافة مدن الضفة، وتسبب بجهل العديد منا بما يدور هناك خلف الحواجز، فلم يبق ولم يذر من الحلم الفلسطيني شيئاً، وبالطبع ليست التجارة والأسعار المرتفعة هي العامل الأساسي.

هذا المواطن المتعلق بأهداب الوطن بقدر ما يُحكِم الاحتلال الطوق على عنق الوطن المستكين تحت الخلجات وبين حنايا المواطن الساعي إلى أدنى مراتب العدالة والمقاربة فإن الفساد والكذب أكلا منه حتى أفني.

من المسؤول عن تحقيقنا؟ من المسؤول إن لم نخدم الوطن كما هو مطلوب منا وكما يجب؟ حين يفرض الواقع المرير سطوته علينا ويعدُّ دقات قلوبنا، فنُسلّم أن لا سبيل إلا إلى هذه السُبُل للتواصل فيما بيننا،

تلكم قوانين عرجاء همجية، جعلتني أدرك أنَّ حبَّ ليالي لمحمد لم يك إلا حالة من آلاف الحالات العصية، فهنا بإمكانهما تهريب العطر من خلف الجدار وعبر الجبال، أما هناك في المنفى فلا سبيل إلى الاحتفاظ بالأثر، حتى ظلك الساقط على قطعة زجاج فضيّ مشوهة إذا مضيت مضى معك ثم يصبح لك شكل الصور الفتوغرافية تقاسمك لقمة الحب على جدار يكاد يتهادى عليك، كما لو كان حسناء تهادى بمشيتها ثقلاً ودلالاً.

في مرحلة ما سئمت الشرح والتوضيح حول أهمية الإبقاء على جسر التواصل وتبرير الأسباب التي تدفع بالفلسطيني لرفع أسعار المنتجات وأسباب وجود أساليب التعامل البشعة أحيانا مع بعضهم البعض.

## سامي

جندي في جيش الاحتلال كثيرا ما تصادمت معه في الحافلة التي كانت تقلني إلى العمل بزيه العسكري وبندقيّته الإسرائيلية، فكان السؤال الطارق مثل المطرقة فوق رأسي ينهال عليّ ضرباً: كيف تكون عربيا فلسطينيا وتحمل بندقية صهيونية تصوب فوهتها صوب قلب أخيك الفلسطيني؟ خصوصاً أنَّ الخدمة العسكرية إجبارية على اليهودي وأفراد الطائفة الدرزية فقط، بينما المسلمون والمسيحيون لهم حق اختيار أدائها من عدمه فما الذي يجبرك؟ كم كنت أرغب بطرح السؤال عليه، لكنني لم أفعل ولو مرة واحدة، ربما لأنني كنت أعرف الإجابة وأخشى من وقعها.

هذه الممارسات جعلت شرخاً كبيراً بين أبناء الوطن الواحد في الداخل الفلسطيني، وكثيرا ما كان يطرح عليّ السؤال عندما أتقدم لوظيفة ما: "أأنتِ مسلمة أم بدوية، أأنهيت الخدمة العسكرية أم لم تنهِي؟" ظن اليهود أن المسلم ليس بدوياً والبدوي ليس مسلماً.

كيف أقنعهم بأنَّ البدوي مسلمٌ وأنَّ المسلم لا يقتل أخاه.

ثمة أمور عديدة خَلقت هذه الفروق وجعلت شروخا عظيمة بين الضفاف فاشرأبت مما صعب على الجزء الآخر منا ردمها أو كسر عنقها حتى صار البعض يضمر للبعض الآخر نيّة الانتقام، بالضبط كما لو كنا أعداء، وكم أسرفنا من أعمار الحبر الذي كتب الشعارات حتى فسد فتجمد الكلام، ولم نفلح في الرّدم.

أم خليل جارتي الفلاحة جاءت صباح يوم غاضبة جداً من موقف المسعف رجا والذي أمه من سيلة الحارثية قضاء جنين، راحت تحكي بعصبية عن رجا البدوي سلّم خاله من الضفة الغربية والذي كان على قائمة المطلوبين، فتمَّ اغتياله ليتم في المقابل حصول رجا على ترخيص للعمل كمسعف كونه لم يقم بأداء الخدمة العسكرية.

يتملكنا الخوف يضعضع شجاعتنا مع أننا كنا أحوج إلى رباطة الجأش في تلك الفترة، نتراشق النظرات المضطربة في هلع نتوقع في كل لحظة رصاصة غدر، فعمد البعض إلى القطيعة والعزوف عن جسر الوصال، فقط تخيّلوا، أن يقتني الفرد سلاحا مهربا ويحفظه في ثلاجة التبريد كلما رأى يهوديا يغتصب أرضا أو يقتل طفلا، ثم يستخرجه ويدفنه بدم أخيه الفلسطيني كلما تشاجرا على فتاة أو مبلغ تافه من المال.

- الحب بتطرف يا سحر يجعلنا مثل رواد الحانات القذرة نحترف السرقة والسُكر بحرفية عالية، ونعود دائما متأخرين، وغالبا ننسى الكثير من المواعيد الهامشية وربما يصل بنا نسيان موعده، إلا أنّنا نتقن حد الدهشة ترتيب الذاكرة.

- حين بدأت آكل البعد في أعينكم شعرت وكأنني آكل شكولاتة الفستق، كم من الشعوب تتقن فن التلاعب بالأطعمة، وكم منها تجعل طعم الألم بمذاق الوّد؟

- لن يحب أي رجل في العالم أجمعه مثلما يحب الرجل الحر امرأة محتلة، فيحبها حبا لذاتها وحبا للتراب وحبا لحبه لها، ورابعاً وليس آخراً، لأن في حبه لها وفاءً وانتماءً ولأنَّ في إسعادها كسر قيد بأقل تكلفة ممكنة، وأسهل الأسلحة تجعله أجمل الرجال وأشجعهم، ثم تمنحه بطولة متكررة في كل همسة وكل قبلة وكل آهة.

فما كان منه إلا أن انتفض واقفاً وجعل يصرخ بوجهي:

- يا سحر ليالي ليست بالنسبة لي مجرد تجربة عابرة، هي لي أنثى التراب، وحضارة أجدادي، هي بالنسبة لي وقد لا تصدّقين، حرب علي الانتصار فيها وإلا فإن خسارتها تعني هزيمة أخرى لفلسطين.

- دع الحنين يأخذنا إلى الجدار كلّما هبّ الهوى وحطّت نكهة الهال، يعلمنا نحن المهووسين بعشق الوطن معنى عشق الآخر في تحدّ فتجري له

الطير كلّما أطلَّ من النوافذ، وكلّما أدرنا صندوق الموسيقى ترك العطر احتجاج الجوري والفلّ.

- ليالي، وفاء التراب للأجساد، ووفاء الآثار للأصحاب ما بيننا مسافة ألف شهقة وتوجّع، فلا تلوي أعناق الحنين يا سحر ترفقي بها وتلطفي لعلَّ يأتينا نصر.

- لستُ محاربة، ولا أجيد فنون القتال، لكنني أتقن أفانين اختزال الشوق، إذا ما فاض وأغرق الوسائد غزلناه أغطية تدركنا في الشتاء.

التَوى وبقي مذاق العشق في فمي، ففسّروا لولاء الصنوبر للغابات إن أنتم استطعتم، فلستُ من فعل، هي أناي ورجولته، تقاسما منتصف الليل وأنا تصنّعت النعاس، للعشق في فلسطين عنوان آخر ليست تشبهه العناوين.

هذه الملامح تغريني، وبقدر ما تغريني فإنها تخيفني، فـتخفيني، لا لإعلال موجب المواعيد ولا لإلزامها، إنّما تخفيفاً لاجتماع الشوق والاشتهاء، وأعذرني، كلما اشتدّ بي شوق فيه تهمة سقطت طريحة فراش وهذه نعمة، فإن جئت ما استطعت إليك النظر، فلا أنت هممت بي ولا أنا بك أهمّ.

كان يروقني منظره ويؤنسني حضوره، مع محمد الشاب الوسيم الناضج حيوية وحياء والذي ما إنْ يلمحني إلا ويلجم شهوة لهفة ترجوه

اقترابا بقبلة خفيفة يطبعها على جبيني، فأصير كمن يتخبطه مسّ من حلم، فما زلت حتى اليوم كل صباح وقبل أن يشتغل أي عضو من أعضائي سوى قلبي أتحسس عطر ذكراه. للفلسطيني ملامح تختلف عن بقية رجال الأرض، لعطورهم عبق آخر، للهمس في آذانهم شكل آخر، لمذاق لقياهم طعم يبقى عالقا ما علقنا بالحياة، لا يلغي أحدهم الآخر ولا ينبغي أن يغني أحدهم عن الآخر.

عامان مرّا على حالنا هذا ما بين مد وجزر ما بين الرضى والزعل، ما بين لقاء وحصار، أي شيء أكثر بؤسا من أن تكون تذكرة العودة إلى الماضي منتهية الصلاحية؟ كنا نجوب الشوارع ليل نهار علّنا نجد ضالتنا لكن عبثا حاولنا، إلى أن حدثت كارثة أخرى عندما نفذت عملية اجتياح مخيم جنين في أبريل نيسان 2002، ما زلت أذكر تفاصيل ذلك اليوم، أتذكر ريح المسكِ والعود يفوح من أجساد الأمنيات المجاهدات وفي مثل هذه المناسبة لا يمكنني أن أزعم أن الرفاق حبسوا أشجانهم كي لا يذرفوا دموع آلامهم، في زمن الانبطاح وقد صار المبتغى ضالاً، لا ريب من الدم المنثور في أسواق الأنين وشوارع المخيم الحزين، إن لم تألم كما يجب فإن للألم حقّاً أن يقاضيك أمام القضاء، واعلم أنَّ الألم دين عليك سداده، فأنت وأنا وهي وهو نقطة ارتكاز وما دوننا بيئة لإنتاج الأجيال القادمة للحزن، يحفرون الصخر يخرجون أفكارا تتكاثر ولا يبحثون عن الصواب، ربما

أمثالنا من ذوي البشرة الساحلية المطعمة بندبات غبارية تعكس رمال النفوذ لا يصل وهمهم إلى فائدة.

وجدنا طريقاً ننفق اوقاتنا فيها، فاشتركنا في خدمة المهمومين، فهي تشعرك بأنَّ هناك من يبحث عنك وإن كان بثمن بخس، مثل كذبة الهدنة كل طرف من الأطراف يعمل خلالها على التسلح بأكبر كمية ممكنة من الأسلحة وأكثرها فتكا بالآخر.

كانت في العمل وجاءت الأخبار تقول: تم إغلاق شارع وادي عارة مما تسبب في أزمة سير قد تستمر إلى ساعات الليل المتأخرة. فسارعت إلى طلب الإذن بالعودة إلى المنزل كي لا أتأخر فتقلق عائلتي، خصوصا وإن علاقتها بمحمد ما تزال تحت الرقابة ولم يخفِ أهلها تخوفهم وقلقهم من أن تكون ضامرة الهرب إليه، كانوا يرون فيها فتاة متهورة، ربما معهم كل الحق، ربما تطرفها في كل شيء جعلهم يعتقدون بالفعل أنها تنوي الهرب، وشكل علاقتها بمحمد مختلف عما سبق وشهدوه من علاقات، لا تشبه في تفكيرها أحداً، غير متوقعة، قريبة من الإدمان على صوته من الهذيان، قد تُقدم على فعل أي شيء في سبيل المبدأ، وربما لا تشبهها أصلاً.

غادرت المكان في حدود الساعة الرابعة والنصف عصر ذاك اليوم، انحدرت بسيارتي إلى الشارع الرئيسي وما أن وصلت حتى أدركت أن لا مفر اليوم، ربما أبيت في السيارة من هول الزحام. بقيت في الخنق ما يقارب الساعتين، طفقت أرتئي ما بين أن أبقى منتظرة خلف هذه الجموع أو أن

ألتف وأعود لأتبع طريق باقة الشرقية حيث هنالك طريق مؤدية إلى عرابة أرض الفحم، ثم تليها قباطية أرض الزيت والمعاصر، ثم تليهما العفولة مرورا بجنين موطن العشق والقهوة وعصفورة الوادي، من هناك أتوجه إلى حيفا أرض الشواطئ الحزينة، وقد كانت الشمس تهمس: أن قريبا سوف أغادر، كانت تجربة صعبة تصادفني لأول مرة في حياتي، واجهتها غير مكترثة بالموت، كان سلاحها مقولة لقنتها منذ الصغر "أن ما من شيء يحدث إلا مقدر علينا". كان بحوزتها صداقات وعناوين حب للوطن لا يقدر بثمن، فكرت إن تطورت الأمور فبالإمكان المبيت لدى أحدهم ولو أنها لم يسبق لها المبيت خارج المنزل من قبل أبداً، لكن لا بأس ففي الضيق تداهمك كل الأفكار السيّئة بنظرهم والجميلة بنظرها.

ما إن وصلت أول الطريق المؤدية إلى باقة الشرقية توقفت لحظة عند المفرق لعلّي أجد أحداً أستنجد به ففاجأني أحد الشبان برشق البنزين على مقدمة السيارة طالبا مني الترجل وإلا أشعل النار، أحسست برعدة تتمشى في جميع مفاصلي، وخيّل إليّ أن صدري يحاول أن ينشق عن قلبي حزناً وجزعاً، فأسرعت أنزل زجاج النافذة، لِيدرك الصبيّ على الفور أنني عربية فصار يعتذر ويبرر، غادرته قائلة: الله معك، دون أن أكترث للبنزين المسكوب على زجاج سيارتي المتهالكة وخطورته، أتراني كنت خارج لولبية الذات؟ تابعتُ المسير بين الخطر والنجاة ما يقارب الـ 40 دقيقة كما لو أنها كانت أربعين عاماً من الضباب، كانت صيحات الشباب

وصفيرهم تعلو وتهبط تبعا للأخبار الواردة عبر الإذاعة، هكذا نحن نعشق لعبة الخطر، صراخ وعويل، جلبة وحركة شبه دؤوب لا تفتر، للحظة قلت إنّنا أخيراً سنخوض الحرب ضد اليهود، أو سنعيد لمنظومة الوطنية مجدها لنتقدم قليلاً على لائحة الترتيب، إذ ألفنا الرتبة الألف بعد جزر القمر ومثلث برمودا، لم يكن شيء من ذلك، إنهم يدقون المسامير لتثبيت الألواح، فغدا سيعلقون أوسمة الولاء على الأكتاف ويرحلون، غداً سيكون ثبات المسامير على الحقيقة بنفس ثبات الأحمر على الشفاه.

وإلى أن شارفت على قرية عرابة كانت الأضواء الخافتة تنبعث من بين الصخور الضّخمة من البيوت الواطئة، كان الظلام قد هبط وأعمى البصر، فكانت تلك الأضواء مستفزة، لما ليس شوارعهم مضاءة كما شوارعنا، ولما ليست هنالك يافطات تدل على الطريق؟ علا الخنق وما عدت أطيق جلوسي خلف المقود، إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا الظلام المدلهم إلى طريق موحش مهجور يخيل إلى المار عبره في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن الجان أو مأوى الغيلان، فشعرت كأني أخوض بحرًا أسودَ يزخر بين جبلين شامخين، كانت رائحة الفحم وروث الأغنام تملأ الشهيق ولا تخرج مع الزفير، تبقى عالقة في الحلق فيلتصق.

طريق كأن أمواجه تُقبِل بي وتدبر، ترتفع وتنخفض، فما إن توسطتُ لجته حتى سمعت هدير أصوات عربات الجيش وأحاديثهم عبر اللاسلكي، أوقفني عند المفرق بين الحياة والموت حاجز للجيش الصهيوني

مما أثار جنوني، عندما اقتربوا من السيارة شاهرين أسلحتهم في وجهي على أضواء المصابيح، حدثت نفسي في لحظة مواجهتهم فيما لو كشفوا حقيقة ما أخفيه في صدري وعرفوا نسبة حب الوطن في دمي سيطرّزونني بالرصاص، ولكن بعد الاستجواب أخذوا أوراقي الثبوتية ورخص السواقة وترخيص السيارة ثم طلب مني الترجل والانتظار على جنب الطريق. انتظرت ما يقارب النصف ساعة مجبرة على سماع حديثهم عبر اللاسلكي مع الحواجز الأخرى أو فرق القمع.

حتى لا تُحمل نفسك مؤونة النظر إلى شقاءٍ أنت صاحبه ولا تكفّل يدك مسح دموع أنت مرسلها، فكر كم يكتم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين، وهل يستطيع أحد بعد ذلك أن يتصور كيف يكون الانتظار بين أوابد الوحوش؟

عاد أحد الجنود يحمل إليّ الأوراق يأمرني بالعودة من حيث أتيت، ألقى الأوراق في وجهي ثم غادر باتجاه رفاقه، دون أن يترك لي فرصة لأقول له أن ما من طريق أخرى تؤدي إلى بيتي.

إحساس ثائر يقطن داخلي، وددتُ لو أصرخ بوجه الزمان مرات ومرات إلا أنه أصم لا يفقه لغة غير القهر وربما لا ينطوي الصراخ على نتائج ذات بال، وأتصور أن الشعور العام بالصدمة سوف يتزايد مع الصراخ، إن عدت فهذا يعني أن أنتظر ضعف ما انتظرت وربما أكثر. ثم إنَّ بقائي هنا يبدو دون جدوى، كيف أتصرف في مثل هذا الوقت المتأخر

من الليل؟ كيف أشعل عود ثقاب في طور آخر متردٍّ لأفضلية التلاشي، ثم قررت أنّني لن أعود من حيث جئت، فأن ترفض ما يملى عليك، أن تسير في اللاطريق هكذا تبدأ المقاومة، وهكذا يصبح كل مواطن مقاتلاً بإمكانه أن يقاوم الاحتلال بطريقه الخاصة وبأسلوبه المتفرد.

صمتتُ أستجمع أنفاسي فلم يبقَ أمامي إلا الاتصال بمحمد علَّه يرشدني إلى طريق أخرى تؤدّي إلى داخل الخط الأخضر.

- السلام عليكم.

هي عادته مذ عرفته لا يرد على هاتف إلا بتحية: "السلام عليكم"

- مساء الخير.

- قطّتي!

- أنا عند مفرق عرّابة والطريق مغلقة وطريق وادي عارة كذلك، هل تعلم طريقاً أخرى توصلني إلى البيت.

- هكذا ما في واحشني حبيبي!

قالها مستخفا بالخطر،

- يا محمد الله يخليك صار من الساعة أربعة عم حاول أوصل البيت.

- طيب طيب اهدئي، ربع ساعة وأعود إليكِ.

وانقطع الاتصال. انكببت على وحدتي الباردة بلا جبين يمر بجسدي تحرّق الحنين، أسراب برد من ثلج، وكان الخوف هنا ينخر ثباتي بعشوائية، ويظلّ جاثماً كغباء سخي متجاهلا سطوة الخطر وظل الموت، مرَّ الوقت، كدت أشيّع السعادة الهاوية بنا ودياناً من آهات خلف الغائبين وراء المستحيل، كنتُ أرغب في الصراخ في فراغ رأسي أن لي بينهم غائباً، وأن زمان الوئام مضى وتلاشت معه أحلام الأنقياء.

بقيت منتظرة ربع ساعة من الوحشة أترقب اتصاله مصغية إلى ضجيج الليل كمن يترقب خبرا في نشرة أخبار عاطفية. لم أشك بشأن عودته لكنّي لم أكن أثق بأسلاك الشبكة في ظل هذا الوضع الشديد القسوة كنت أقول لنفسي مواساة: "سيتصل" فأسعد. مللت الانتظار وتملّكني الخوف والقلق وخشيت أن تجرحني المصادفة.

فجأة أطلّ بسيارته الحمراء خفف من سرعتها لّما اقترب مني، لم يوقفها، أومأ برأسه لي أن اتبعه وتابع مسيره ببطء، فتبعته نعبر الظلام الدامس في تلك الجبال يرافقه أنين الليل مثيراً شجن الخوف الهادر كلما طال الطريق وكلما انعطف ليأخذ طريقا أخرى ظننت بأننا وصلنا نهاية الطريق.

طال الطريق وسقطتُ فريسة للخوف منه، نعم خفت من محمد فللمرة الأولى ألتقيه ليلا وفي مثل هذا الظرف، وللمرة الأولى أحتاج عونا من

أحد، في البداية ظننته من النوع الذي يستهويني فقط حتى هذه الليلة، خوفي الشديد منه جعلني أفكر في كل جانب وسألتني هل نحن أنا ومحمد مميزون؟ تراني صدّقتُ بدوري أن الضفاوي إرهابي؟ خانني حدسي هذه المرة ورابني من أمره ما رابني، غدر بي صدق محمد، فنضج الخوف في دمي، وشيطان الوجع مراوغ راودني عن الأمن، ساعده الليل والظرف القاسي في علوِ الحنق فأثقلني وأوجعني، كان يقول لي: لا يخدعك لون الفارس، فما هذا إلا ذكر بين فخذيه سلاح يفتك بالشّرف.

ما إن عبرنا الإشارة الضوئية عند مفرق "زرعين" حتى أخذ الجانب الأيمن من الطريق وأوقف سيارته بالقرب من محطة الباص، فتوقفت تلقائيا خلفه، ترجل من سيارته متجها نحوي، اقترب مني بحنو قَبّلَ جبيني، ثم قال: يكفي إلى هنا، أنتِ تعرفين بقية الطريق، الله معك. ثم أدار ظهره ورحل عائدا من حيث أتينا.

حقيقة أصبت بصدمة أمام هذا النقاء والوفاء فلم أنبس ببنت شفة وتركته يغادر دون أن أقدم له الشكر على ما فعل من أجلي، أو الاعتذار على عما بدر من شيطاني.

في الطريق قلت لنفسي: هذا الرجل لن أخشى على نفسي إن أنا بتُّ عارية بقربه، فكبر في القلب حبي لصدقه وأدبه، ولكن إلى متى نجتر الموقف ونقف عليه وكأنه جعل لينذر بآخر الدنيا.

أين أنت يا أبا جهاد، أين أنت يا غسان؟ فلتسمعا من قبركما: خسرنا، نعم خسرنا لأننا الأضعف في كل شي، فنياً وفكريا، تكتيكياً وعناصرياً، نعم خسرنا لأنَّ الولاء في الوطنية أصبح للمال وللرمز وليس في ذلك مشكلة. نعم هذا عصر المال والرموز، لكن لماذا نحن فقط من تأثر به لماذا الكل تطور بسببه، والكل لم يتأثر به، إلا نحن تأثرنا منه.

نعم خسرنا لأننا لم نجد ما نحفز به عقولنا إلا المكافأة، لم تعد هناك محفزات ولا أوتار للعزف، لا الوطن، لا السمعة، لا التاريخ ولا الأمة، فقط "مكافأة مضاعفة" هذا هو المهم.

خسرنا لأنَّ معسكرات رموزنا أصبحت لإعداد الأندية وتجهيز المتهمين. نعم خسرنا لأنَّ الوطن أصبح متاحا للجميع، فقط جولتان وهدفان تجعلانك ضمن القائمة السوداء، لم يعد الحراك الوطني هو "المكافأة" لموسم طويل وجهد متواصل من النضال، بل إنّه لم يعد الطموح لأنه باختصار "متاح للجميع."

نعم خسرنا لأن الأخضر لم يعد أخضر بل نراهم على شاشاتنا بقمصان أحزابهم، ونثني على أحزاننا من خلالهم، نعم خسرنا لأننا لم نعط "الخبز لخبازه" ولم نُحضر لمعركتنا، من مارس السياسة وعرف دهاليزها وعرف أجواء المعسكرات وكيف يهيئ المناضلين نفسياً وبدنياً ليديرها على أكمل وجه. نعم خسرنا لأننا لا نجيد التخطيط والتنسيق، فمعركة مصيرية أمام خصم متمرس ونلاقي قبلها وادي الغيلان أمر لا يحتمل، شخصياً أشكرهم لأنني لم أكن أعرف ألوان وشعارات الأحزاب الفلسطينية، وخسرنا لأن حارس مرمانا لا يعلم من أين تؤكل الكتف، ومناضلينا انشغلوا بألوان الشعار، لدرجة تحول معها الوطن إلى ما يشبه ثلاجة "مشروبات غازية" لكثرة ألوان الشعارات والمخلوقات الغريبة المعلّبة المحفوظة فيه.

نعم خسرنا لأننا نملك حزباً ضعيفاً وخططاً عقيمة وقاعدة متهالكة، وإعلاما مُكبلا، ولأننا لم نتخلص من سياسة "الإبر المهدئة" عند أي انتكاسة، أقيلوا فلانا وعينوا فلانا، وتفرّق الرّفقاء.

كانت جنين وبلدة نابلس القديمة مسرحاً لأشرس المعارك التي دارت خلال الاجتياح، كارثة كان من شأنها أن تصلح بعض الأسوار إلا أنّها زادت الأوضاع سوءا فأحكم الإغلاق أكثر وشيّد الجدار وشيّعنا آخر الآمال، يا لحياتنا مثل أبواب تُصفَقُ وراء رفاق يغيبون خلف الاحتمال، كما لو أنهم جعلوا سدّا عميقا شاهقا منع تدفق ماء النهر، نخعوا الحبل فتساوى كل شيء في جنين، الحياة والموت ورغيف الخبز المبلل بالدم، تساوى كل شيء حتى الجنازة والعرس، كانوا هنا ويبقى أثرهم وتبقى الذكريات تفترش عقولنا نلتحف صقيعها تارة وتارة أخرى بشديد حرها، فوجب الحظر والكتمان على أي كلام يعلو على منادي: لا للحصار لا للجدار...

شباب انحصرت أحلامهم واختزلت إلى شظايا قنبلة كونكريتية تقضي على نصف الشعب ليتمكن النصف الآخر من التسلح على ضفاف الحياة برغيف خبز لا أكثر.

لم تكن تلك مفاجأة من أي نوع، فقد توقعنا حصول مهولة التشديد بالنسبة ذاتها التي تحصل في كل مرة لأي تصعيد لمقاومة الاحتلال إلا أننا لم نتوقع الجدار، ولم نكن وقتها نرجم بالغيب أو نقرأ الرمل، بل كنا نلحظ تحولاً جرى في المجتمع الفلسطيني عبر عقود بعد حظر وموت وهدم للبنى وتحطيم الركائز الرئيسية الهامة لقيام الشعب من تحت الرّدم.

بدا بناء الجدار محلا لعطف شعبي جارف، وزاد المطاردات الأمنية من وهجها الأخلاقي والإنساني وبدت مشاركات شعبية فلسطينية في كلا الضفاف في خانة، وفي صفّ المطالبات الوطنية والاجتماعية الواحدة إلى حين في خانة أخرى.

أدّى سريان الأحداث إلى انكشاف سريع وإلى تزايد حدة الانتقادات الموجهة من أبناء الضفة إلى أبناء الضفة، في حين أن هناك الألوف ممّن يقاسون شتى أنواع الاضطهاد والاحتقار وهم بحاجة ماسّة إلى المساعدة لإلغاء الفوارق العنصرية في كافة المجتمع الفلسطيني. ورغم أن الوصف ينطوي على قدر من القسوة، إلا أنهم بدوا وكأنهم ليسوا أبناء وطن واحد، كانت الحرب تدور ما بين الوريد والوريد، وبائع الحنين في سكونه الغريب كان مثيراً للريّبة، ما يلبثُ أن ينتفضَ فيفزع في صوته الجهور قائلاً: إن لم تغص في دروب التائهين فلا طائل من شراء الحنين . فيؤلمنا.

ابتعنا وطناً مشبوهاً وعائدين ألهبنا مشاعرهم وما أتعبوا أنفسهم حتى غرقوا في الضوضاء وفوضوية الانقسام مدّعين أنّا نحن مجمع التابعين ننفي ونثبت في غابة يرونها أنيقة، يكفينا فيها شرف الإدانة.

كم تمنّيتُ لو تخرج من لغة الذّوْد أناتنا وتنضج شقيّة الدم. على الباغي يا أناي تدور الدوائر، وفي دكان الحنين مخزون يكفينا دهورا. ولنشكر الحزن الذي يمدنا بصلة قرابة ما بيننا وما بين البؤساء.

حين نشبت الانتفاضة مرة أخرى وتأجّج الحراك الشعبي بدأ الجميع يتطلع لأفق جديد يجُبُّ سنوات القهر التي عاشها الشعب وهو يترنّح تحت رحمة الاستعمار وتخاذل القادة السلمي، ولكن الأقدار وضعت في سبيلنا قادة لم يعملوا على توحيد الصف الفلسطيني إضافة إلى تحولهم من شراسة الخطاب إلى صمت الحملان، كما لم نشهد لهم فعاليات مشتركة تخفف من حدة الخطاب والتعامل بين الإخوة، لا وبل على العكس من ذلك فإنَّ الداخل الــ67 عمل القادة على تقسيمه وإحباط أية محاولة للمقاومة تجابه بالردع، من تقسيم الضفة إلى "الضفة السلطة فتح، وغزة حماس"، على أثر التقسيم تمَّ اعتقال عددٍ كبيرٍ من أفراد "فتح"، ووضعتهم في سجون غزة كما لو أنهم قطيع من الدجاج، وفي الضفة عملت "فتح" الشيء نفسه وسجنت عددا كبيرا من أفراد "حماس"، ثم تم جعل يوم السبت يوما تجاريا يتم السماح فيه لفلسطينيي الـ48 بدخول أراضي الــ67 بالطبع بإيعاز صهيوني مع السلطة الفلسطينية بعد مرور

فترة طويلة لم يتم السماح فيها لأية زيارة إلا من بعض حالات نادرة، "إنسانية"، كما يروق للبعض تسميتها، ثم تم إطلاق اسم على يوم السبت "يوم عرب إسرائيل" يتم خلاله منع فلسطيني الـ67 من إيقاف سياراتهم في المواقف العامة والسماح فقط لـ الـ48، مبادرة جيدة لإنعاش الاقتصاد إلا أنها كانت محاولة شنيعة لتوسيع الفجوة بيننا، كان أثرها على المدى البعيد مسيئا بشكل خاص لكلا الضفتين " الـ48 و الـ67". فمن المعروف أن أية فوارق توضع بين الناس من شأنها أن تجعل الفرقة وتشعل البغيضة، فمنحونا أرقاما وتسميات.

في النهاية فإن الجدار لم يكن يعظم شأن التفرقة بين الضفتين كما عملت عليها السلطة وحماس من خلال إفشال أية محاولة من قبل الشعب لاجتياز الحاجز النفسي، ثم بدأ الشعب يعاني انقساماً وضعفاً من الداخل، ونقداً شديداً من الخارج لسياستهم التي لم ولن تحقق عُشر الأماني التي يصبو إليها أبناء فلسطين.

ومثل نهاية أية ثورة "هي لم تنتهِ لكنهم هكذا صوّروا لنا مثل أية نهاية" صرنا نشبه شرائح الصفيح لنا ضجيج حتى في لحظات السكون، ما التأم الجرح لكن دبابيس الحنين تحفره حفراً لتتسع مساحة الوجع، وذاك السّم اللعين فتك بالعقول، ففقدنا الحكمة الرشيدة وصرنا نعتقد بأن كثرة التنازلات تزيد المدفوعات، كلّما سمعنا عن قمة يتنازل العرب فيها عن شرف قضية أو رداء ضحية قيل: لا بأس فغدا يسهلون الحصول على

تصارِيح عمل، ولمّ شمل، وينتعش الاقتصاد ويصير الرّغيف "ببلاش"، وربما تفتح الطرق ونعود نواصل وصل الوصال، في مدن الضفة على وجه الخصوص، وبعد بناء الجدار تدهورت الأحوال إلى ما لا يمكن وصفه.

كنت أخشى على المنتظرين هناك على أطراف الضفاف المترامية على تخوم الحدود ينتظرون قرارا بعودتهم إلى عباءة متربة، لا تخبروهم أننا هتكنا سرّ انتظارهم واغتلنا أحلامهم، والأغلبية طأطأت وانحنت للتسهيلات ثم أكلنا لحومهم أحياء، لا تخبروهم أننا سلبنا الكحل في طرفة عين وأنَّ أحلامنا تختلف عن أحلامهم وأن طرقاتنا لا تشبه طرقهم، وأن الرّصيف جعل لنا وحدنا وهم رتب لهم هامش مُدّ مَدّ الكفن، أرسلوا أمنياتهم مع مد البحر وفي جزر أعدناها إليهم صاغرة ذليلة حسيرة ليست بذات بريق كما جاءت إلينا حاملة عطر الجدات وتعويذاتهن الحميميات الحبيبات.

كنا نسير وحدنا على أجساد الشهداء كأن ما بنا قلوب ولا نرى سوانا، نزولاً إلى حيث لا ماء ولا أرض سويّة، مشرعة أمام الجدار نقف فيتصلب النظر، لنا ربيع لا يشبه ربيعهم ولنا أمطار لا تصلهم ولهم جرح لا ينزف إلا من أوردتهم، رأيناهم يتساقطون مثل بقايا خشب تكوّم في أحشاء مبراة قلم، لاحقا عزفنا بدورنا عن المرور بحواف الجدار خوفا من تصادم بمصادفات، فكلها تأتي جماعة عندما تكون الحلقة الأضعف ليس أنت إنما من بنبضه ينبض قلبك، مما وضعنا في مأزق، وهو الذي اصطادنا من حيث يعطي للممحاة أولاً شرعية اتخاذ القرار بشأن علاقة ليالي بمحمد، ويرفع الحرج عن بقية أولي الأمر.

- من يسعف فمي يا أمي؟ هذي خدي وذاك الآخر وبأيهما رغبتم فاصفعوا عليه هنيئاً مريئاً، فما بذرتموه بالأمس تحصدونه اليوم ولا تثريب إن أنتم غضضتم الطرف أو أزلتموه فكلاهما أقرب إلى التقوى.

- أشتهي أن أرى على أيديك ولداً.

- كم حلمت بأن أعبر إلى ضفته الأخرى وأن ينبض قلبي بنبضه، ينبت العشب في الحشى فألدُ منه وليدي، غادرتُ أحلاما كثيرة متشابهة، ليس الخائن من وشى بك لعدوٍ، بل من نهب حلمك حين اؤتمن عليه، هتك سرّ المأمن وفضّ بكارته .

دعيني أغرق في شيء من الأحاسيس المنطقية، وحدي "أنا" بكل أنانية، ولن أعْلَق في ذهن أحد تماما كـــالغرباء لكني إن غرقت فهو ما جنته على نفسها نفسي. فانظري في أمري وما استحق، فلست أنا من خبّأت الغدر في النوايا وما بعثُ صوتي للقبيلة، ولكن حين لزم الأمر في الحب قال ابنك: هذا ضرب من حب الذات!

- العجيب أن التنويه جاء أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة كلها كانت تتوافق مع أهوائهم إلا هذه المرة صارت ضربا من حب وعار.

- هذا الحب الذي ترونه قمة النجاسة وممارسة بشعة ضد الأخلاق، أراه قمة الطهر حتى كدتُ أقول عنه نبيّا.

- ليس في نيّتي أن نتشابه يا أمي، إلا أننا نختلف كثيراً في الطريق إلينا ليس أكثر، وليس بالضرورة ركوب سلّم المشقّة للوصول، فبعض المغامرات تأتي متأخرة جداً وليس لدينا متسع في القلب.

- اعلم أن دوما بالإمكان سحب الورقة الأخيرة والترجل من على صهوة المغامرة كي لا نتكبد عناء الخسارة والانكسار فلا يكتمل فينا الحب ولا نتمم الألم.

دخل عليهما في هذه الأثناء حسام.

- أظن أنكما مازلتما تراسلان!

وأضاف ثان: جلبتِ لنا العار.

- نعم ما زلنا لكن حبنا ليس عارا على أحد وإن كان في الأمر أي عار فهو ما تفعلونه الآن.

- كبر رأسك يا ست ليالي وصار لكِ لسان لازم أقطعه.

- وماذا تنتظر، هل تظنني أتعقّل مثلكم؟ هذه أحلامكم التي لن أحقق.

- وما الذي تنوين صنعه بهذه العلاقة؟

- وما الذي يفعله الناس في علاقات الحب؟

- لا تردي على السؤال بسؤال، ولا تحاولي كعادتك فلسفة الأمور.

ثم صفعها قائلاً: تأدبي وإلا ذبحتك.

- غرُبَ الأدب عني كما غرُبَتِ القرابة بيني وبينكم، فكّروا بعقولكم، هذا الشاب من أرغب ولستُ أنا من تختار من تحب.

يرد عليه الثاني: لا تخف لن تفعل شيئا.

وردّ عليه بصوته الأجش، كيف أصدّقها، أعرفها تحامقت كثيراً وهذه المرة لن أسمح لها. صفع الباب خلفه بعد أن جرّدها من وسائل الاتصال.

تمر الساعات المفرغة في قلق متزايد على أني ربما أستعيد شيئا من رباطة الجأش ثم أشرب جرعة كبيرة من القهوة لكي يعود إليّ نشاطي فأجلس أنظر إليها وأنصت بصمت كما لو أنني أمام قساوسة قساة.

عندما تعجز عن الإمساك بكافة الخيوط والمعطيات ولا تدرك حقيقة ما يجري ويشاع وترتبك أيّما ارتباك فلا تميز الصديق من العدو وتنسى الأحاديث المخدّرة المحذرة من جنة الدجال وناره تنظر إلى السماء رافعاً يديك لتقول شيئاً أو ترتل دعاء إلا أنك تنسى الأمر برمته بمجرد أن تشعر بالتحليق مؤكداً ذاتك كمواطن، ومطهّراً نفسك كانسان.

رتبا للقاء في جبال كتسير، جبال الثالوث الواقعة بين ثلاث قرىً يهودية وقريتين ومدينة عربية، هذا الشكل الرباعي سداسي الأقطاب الدخيل على علوم الرياضيات يرهقك عندما تعلم بأن المقيمين في الضلع الثالث العربي ليس مسموحاً لهم بدخول الخط الأخضر كما ليس مسموحاً بدخولهم الضفة الغربية إلا بتصاريح كي يسمح لهم لاحقا العودة إلى بيوتهم.

ولأنَّ القرى المتاخمة للغابة يقل فيها الأمان والإنسان، لا يقطع سكونها سوى عواء ذئاب السادة، يدعون الصبية الضالين عرضة لأنياب السباع، هنا فقط أنصح فأحرّض وأنا ملتحمة بالخوف، منتظرة قمحي الملامح في صمت وخشوع لرهبة اللقاء.

- أنتِ مجنونة كيف تدخلين تلك الأحراش بمفردك؟

- لست بمفردي، فمعي أحلامي وانتظاري، كما أن مع محمد يموت فيّ الخوف.

- أنت مش معقولة أبداً، افرضي حصل لك مكروه هناك، من يفهم أنّكما التقيتما للحديث فقط؟

- لا يهم.

- تباً لك من حمقاء، فعلا وريثة جدتك.

- هات الجديد سحر.

- تسخرين من الواقع، أخشى أن يأتي يومٌ يسخر فيه الواقع منك.

- لا بأس حينها أكون قد متُّ، أو مات الوطن الضّيق.

لاحقاً أخبرتني بتكرار اللقاءات في الأحراش، وبّختها حتى غادرت المقهى غاضبة مني لا مبالية بخوفي عليها.

احرسوا أدمغتكم من أن تصاب برعشة خوف هاربة، هنا فقط لن ينغص نوم الأشراف عواء البنادق ولقاء المجانين بالشّك والريبة وامتعاض، وضيق مساحة الاختباء لن يمنع تناسل الوجع بترف، ترى كيف نصمد في وجه الغياب ونعالج رعشة الكلمات بصمت؟

في اليوم المحدد تسلقت الجبال يتّبعني الخوف بنظرات مليئة بالتحذير، كنت بالقرب من المكان المتفق عليه الخامسة من مساء ذاك اليوم، رحتُ أرقبُ المكان من بعيد مدة كافية لتسقط الشمس ويصاب قلبي بالفتور، لم أرَ سيارة محمد قادمة، أشعلت سيجارة وجلست أنتظر، العجيب تمكني من ملاحظة مذاق السجائر في أحراش الصنوبر بنكهة أخرى غير المعتادة كأنها الأولى، بل كأنها الأخيرة تدخنها بلوعة لهفة مشرّدة تأتيك من بين غابات كثيفة الضباب، لا تتيح لك فرصة لرؤية سقوط القمر أو إلى أين تأخذك الخطوة التالية، فتلتحف الضباب دون رغبة منك، ليصبح الانتظار مقدّسا مثل الولاء الأعمى، ويصير للخوف متعة وعواء الواويات حكاية جدتي القادمة.

عندما حان اقتراب الموعد المحدّد بدأت في التقدم من المكان متباطئة ومطفئة أضواء السيارة حتى لا أثير انتباه الجند المتواجدين على الحاجز القريب من خلال أبراج المراقبة، ما إن وصلت إلى مدخل الغابة حتى بدأت أسمع صوت إطلاق النار ودوي انفجار قنابل مسيلة للدموع.

نظرت إلى عميق الغابة دون أنْ أتحرك من مكاني فلم ألحظ شيئاً لكثافة الضباب سوى أضواء فوانيس والتماع الرّصاص، فقلت في سري: خلص قتلوه يا جدي، إياكِ يا عين وإياكَ يا قلب من رعشة نبضه الأخيرة هذا القتيل حبيبي.

فكرت أن عليّ الانتظار حتى يغادر القتلة ثم أدخل الغابة ألملم دمه المنثور، هكذا رأيتهن فعلن من قبل، دقائق يتيمة شعرت خلالها بالرد يتغلغل في عظامي، والضباب يزداد كثافة وثقلا فوق ظلام الليل الدامس.

لّما نظرت إلى المكان ثانية تدافع من وسط الغابة جنود صهاينة يتضاحكون ويهتفون ملوحين ببنادقهم فرحين بإنجاز المهمة. لحظات عبرت جسدي كأنها الدّهر إلى أنْ لحظ الجنود تواجدي مسمّرة في مكاني، اقترب واحد من بينهم وسألني: ماذا تفعلين هنا؟

لا أدري كيف وجدت نفسي أرد عليه بصوت عال: ماذا فعلتم.. ماذا فعلتم بهذا الهجوم المفجع؟ ليدرك أنني واقفة في المكان وقتا كافيا لأفزع من رصاص بندقيّته الغاشمة، فقال: أبداً مجرد تدريب، حبّذا لو تغادرين المكان.

كان عليّ المغادرة فقد أمنت أنّه لم يمت، على الأقل ليس اليوم.

فعدت أنحدر على مهل بسيارتي من أعالي تلك الجبال القاسية المضببة بالضباب، حتى بلغت أسفلها رن جرس الجوال، كان المتصل محمداً،

اتصل ليخبرني أنه لم يتمكن من عبور الحواجز فعاد بأدراج الأمنية إلى بيته، قلت له هل من الممكن أن تجتمع الانتفاضة والعشق في زمان واحد؟

- وماذا قال؟

- لا شيء.

## ضفّاوي..

في يوم من أيام المذلّة سمعنا أنَّ الهالك موشي ديان نهق متهكما: "لن يستطيع العرب التفوق علينا إلا إذا استطاعوا الوقوف بشكل منظّم في الطابور أمام المخبز.".

صدق الهالك فقد أصبح لدينا من يجيد النهيق المنتظم أكثر منهم وبكثير... ولن يفرح لا هو ولا أيّ من أمثاله الحاقدين برؤية الطابور المحترم لا أمام المخبز ولا حتى أمام إشارة المرور.

قم توضَّأ وصلِّ ركعتين يا محمد، عسى الله ينسيك أو يعمي الأبصار فلا تقرأ ولا تسمع مفردة "أحبَبتُك أيها الضّفاوي."

تلك الأفكار تراودني مع قهوة الصّباح في حديقة أمي الملأى بالحبق وأعواد الزّعتر، وظروف الرّسائل القديمة تراودني عن فتحها، تباً لي إن أنا فعلت، ففيها مما يميت اللّحن ويدمي أصابعي يا سحر.

- هل أخبرتكِ بأنني كسّرت قيثارتي وما عادت أطراف أصابعي قادرة على اللعب بأوتارها كما في السابق، كما كنا عند أدراج الفلّ نرقب العابرين تحطيما فوق أجساد الحكاية القديمة زلفى من الجدران العتيقة؟

هل أخبرتكِ بأن صوته الّذي كان يأتي في المساءات الناعمة مازال يصدح في أقبية غرفة التّعذيب؟

- هل أخبرتكِ بأنَّ حدائق حيفا وشوارعها المظلّلة بأشجار الكينا الشاهقة تسأل عنكما وعن خطانا الطفولية، وأرجوحتك في الكرمل قطّعوا حبالها؟

- إنَّ الغروب عند شواطئنا صار يجيء مرتدياً رداء الغياب وعيونه ملأى بالتراب؟

- ألم أقل لكِ يا رفيقتي بأنَّ اللّوز لن يزهر من بعده؟

لم يكن بوسعي ألّا نعود إلى تلك المدينة، فثمة ما يدعونا دائما بقوّة إلى عوالم عينيها وأهلها، وثمة أحاديث لم تكتمل بعد الصمت.

في كل لقاء كانت فيروز حاضرة بأغنيتها (أعطني الناي وغني) يعطيني فنجاني الأول ويهمس بالقرب من خط الخطر.

- هذا الصباح تبدين كـــطفلة، مثل قطة هاربة من قسوة المطر، ليت بوسعي أن أخبئكِ تحت معطفي وبكِ أطير.

وما أن ينهي جملته حتى تتلاشى خجلاً من مشاعرها المستثارة من هالة حضوره الفاتن، وبغباء كانت تردّدُ على مسمعه عبارة بلهاء لم أجد لها تفسيرا حتى اليوم: حين نختار أن نحبَّ غير الذي اختاره القدر لنا، لا بدَّ أن نكون حمقى، فلن يكون وفيّاً لنا ولا للذكرى، كما لن يتسع قلبه لتفاصيل وكلمات أنثى طفولية.

أرعبنا في هذا الوقت الضجيج المتزايد ممزوجاً بضحكات المارة من أمام باب محلّه، فخرج من المحلّ ليفرَّ بنفسه ويتركنا وحيدتين في مقعد حتى لا تأكلنا نظراتهم حقدا وشماتة، بطرائق وأساليب يكرهها أهل الكرم والأخلاق بينما نحن شعب نعتنق كل ما هو مكروه ونسيء الظن حتى بالحجر.

لاحقا سرنا في ممر ضيق أجبرنا على الاقتراب حد التلاصق، كدتُ أن أشم عبق أنفاسه في ملامحها.

- يغريني، يمنحني شعوراً يجعلني معه أغرّد كـــالحساسين ناصباً لي شباك التحرّش، يقلّبني ذات اليمين وذات الشمال فلا أنا مبعوثة إليه ولا هو إليّ مرتد.

تسلّلوا إلى مسمعنا باسطوانة مشروخة عن البعد الثالث لنا والّتي تنطوي على قدر كبير من القسوة "ضفّاوي.".

- سبق وقلنا لك، لن نقبل بزواجك من هذا الضفاوي.

- وإن ذهب إلى شتات سأذهب خلفه، قبلتم أم لم تقبلوا ما عادت تعنيني موافقتكم أو الرّفض.

- لو فكرتِ لسوف نخلع رأسك من على جثتك ونقتله.

وكانت ترغب في استبقاء اختيارات الهدنة التي تدار بين ضفته وضفتنا، وتخشى تحطم الحلم بعدما خلعوا رأسه.

- أنتِ أكيد بتخرفي، وشكلك نسيتي حالك وصرتي مش عارفة شو بتحكي.

- هي أصلاً متى عرفت ماذا تقول، كل عمرها هبلة ومش عارفة وين مصلحتها.

- معك حق، لستُ بحاجة لمعرفة مصلحتي أين طالما أنتم تقررون نيابة عني.

تدخلت أمي بعد البدء الجسدي للحديث ببكائها، فهي مثل كل الأمهات لا يملكن لنا عزاء سوى البكاء، تتدخل لفضّ الشجار فتفقد

توازنها وتسقط أرضاً، أو هكذا تؤدي الدّور على أكمل وجه، وأنا مثل حائط مبكى الجميع ينهالون عليّ ضربا بالشتائم، وكل يدسّ في رأسي أفكاره وأنا لا أحرك ساكنا.

- وهج مشعّ ذلك النور الذي أراه يا سحر حين أتخيّل غدا معه، شيء من الأنانية ينبغي أن أتشبث به ليتعثر الكلام في حلقي قبل أن يستنطق غير أناي، أنا سأقول أنا سأفعل وأنا سأقرر؛ لأنها أنا وحدها التي يجب أن تجد حلاً مناسبا للمشكلة الأولى والمستقبلية الأزلية في التشبث حتى آخر الطريق، والتحوّل من الدرب الموعود بالتهامنا أحياء بعد نفاذ ذخائرنا من العمر المحسوب، ذلك الذي يجب أن أجد له حلاً بأقصى حكمة.

- كم تمنيت لو أني تخلصت من الاعتقاد بوجوب البحث عن المختفي من الإشارات وما يحاول الجميع إخفاءه في صندوق السرر وتحت الملايات الملونة بألوان سيّئة الذائقة، وكم تمنيت أن أكتب على جبين الياسمينة حكاية طفولَة حكاية بريئة، وأن أغزو كل الميادين بجنون بيقين بثورة عتاب، هوني عليك يا شهيّة العطر.

- كنتُ أعتقد دوما أننا نريد أن نُغربل كلّ إرثنا النضالي والثقافي، نريد أن نأخذ ما نَحتاجه منهُ، وأن نُبقي ما لا نحتاج حبيس أزمنة مضمّخة بالعار، إلا أنَّ الإرادة دون رغبة لا تساوي شيئا، وأن الألم الشديد يقتل أجمل الأشياء، حتى رأسي أصبح ثقيلا، ما عدت أستطيع أن أضعه فيه.

- ضعيه في أحد الصناديق، واحتفظي به هناك في القبو بعيدا عن أفكارك المجنونة.

- رجوتهم ألا يحدثني أحد عن الأمس فقد نسيت كله، أردتُ أن أخبرهم بأن العيد لن يأتي؟

قلت هذا لأبي الأسبوع الماضي بعد شجار ما بيني وبين إخوتي افتعله المحاة هكذا أسميه فليس يهدم البناء فقط إنما يمحوه، لا مبالٍ بمن بناه.

- سمع أبي أصواتنا فجاء إلى حيث جلسنا ووقف بباب الغرفة نظر إليّ بأسى وسأل: ما بكِ، ماذا فعلوا، من الذي أغضبك؟

أتذكر أني انفجرت باكية وضحكاتي تعلو، تملأ فضاء الجنون، هكذا يحلو تجرع الوجع يا أبتِ وهكذا تكون ردود الفعل حين نكون أسرى البلبلة.

فبكى أبي.

- هون عليك لا شيء يستحق التّعب.

فأجهش في البكاء.

اقرؤوا ما ملأ جوانحي، لسوف تدركون الأمر لاحقاً، متأخراً عن رغبة الأشياء حين تفقد بوصلتها، لأنَّ الحب الصفيق أجمل ما فيه يبقى سراً، بعد اتخاذ اللازم للاختفاء.

- يا ليالي إننا تحت تهديد سلاح الاشتياق وعلى مضض نجازف بحياتنا بوجودنا، تغلبنا على اللسان رعشة الأسى، فنفشي بشراهة لواعج الغرام ويبدأ الصراع، فيزداد انتفاخ الرأس.

- أشعل سيجارة يا أبتِ ودخِّنها على مهل، فعندما نسقط في أيدي صنّاع البؤس الماهرين لن تكون لنا فرصة التدخين بنهم.

قالت لحسام عندما طلب منها في النهاية ترك محمد،: سأعقد معك صفقة مكشوفة، فلدي حل أفضل وأظنه يعجبك، أرجوك أطلق النار، سلمني بيدك إلى حتفي.

وكانت تعتقد بأنه رجل عاقل فيقبل بالعرض، لكنه أبى إلا أن يقتلها ببطء.

- إن لم أتزوج من محمد فلن أتزوج أبدا وإن تلعقوا السماء.

كنتُ أشعر بالأسى لكثرة ما حاولت إفهامهم بأن لا جدوى من محاولة منعها من عطف إليه، وكأني أضمر لي ولها حزنا حين أرى القردة تقفز فوق كل دقيقة.

- أيها الغرباء عن أرض لا تعترف بخطى سادر لا يهمه إلا ما في حدود غيّه، إذا أصبحتم فجأة مؤمنين افركوا أنوفكم بالتراب وتمرّغوا فيه، وأوجدوا لكم فتوى تخرجكم من الزمن العاقل إلى طهارة الجنون.

دونكَ عمري، دونكَ الحلم وعطري، دونك الشّال الحريري ووسائد أعدّتها أمي، بل دونكَ يا أنت دونكَ أنا.

- هذا الحب يُقلِق أنفاسنا ويحترف توثيق الوجع، فتنعقد الأشواق المتأهبة، من أجلنا فقط، كانت تسرد علينا تفاصيل الشّجارات، تتوقف لحظة لتشعل سيجارة أخرى، ثم تتابع وقبل أول كلمة تطلق ضحكة رنانة، كأنما يطربها الوجع.

- ضاجع الحلم وسائدنا المتوترة، ورّطنا في محنة الضفاف، بتلكؤ تأخرنا على تخوم الحدود، بالحروف القارصة، لمَ، ومتى، و أين.

- اصنع لنا قهوتنا المعسولة بريق انتظارنا يا محمد، فلا شيء يغرينا في البقاء مثلما تغرينا الفناجين، واجعل لنا ترنيمة كما يفعل المطر، ولك آخر ما تملك ليالي من الحب والعنب، ودع المفارقات الكثيرة تعبر رأسك الأجوف في ثانية واحدة من الزمن الغابر، كل ما عليك فعله التقاطها ووضعها في علبة أو كيس حافظ يمنع عنها دخول الهواء حتى لا يتسبب في أكسدة المحتوى، ثم ضعها في ثلاجة بدرجة تبريد ألف ميل تحت الصّفر.

- لا مجال للمقارنة ما بين البقاء والرحيل، لا توجد فسحة تحمل وجه المقارنة، لا مجال محال.

- مللت النهوض بعد كل انكسار، مللت شرب الارتباك مع قهوة معتّقة ببديهيات الغياب، مللت، فلن نتفق ولو كان الاتفاق مع ذواتنا بأن أكبر دافع للرحيل هو الطريق إلى النهوض.

- فلننظر إلى أسباب الرّجوع، إنها تتسربل دون عناء مثل خيوط الضوء في مجتمعات أخرى.

## مـركـز شـرطـة زفولون- قرية زفولون حيفا

بعد حادثة الأقصى بأسبوع كان محمد عائداً من الناصرة في طريقه إلى جنين حين اتصل بليالي، وكانت ليالي كعادتها تحتسي قهوة المساء عند ناصية نافذتها المطلّة على السّهول.

- ليتكِ معي الآن، عائدين من زمن آخر.

- ما رأيك لو تأتي الآن تأخذني في جولة مكوكية؟

- مؤكد أنكِ تمازحين.! إلى أي حدٍ نستطيع المخاطرة، وهل نقدر على الدفع في الاتجاه.

- أبداً والله، ما عم بمزح، ماذا قد يحدث، هل هنالك أسوأ؟ في اعتقادي من حقّنا أن نجهل ونعيش لحظات طيش، وليكن أرغب بضمك الآن إليّ، وليكن يا محمد.

- لا أدري لكنها مخاطرة، قد تودي بكلينا.

- وليكن حتفنا معاً.

- أنتِ طفلة متهورة، أنسيت ما حدث لك قبل أيام... انتظري لحظات، أمامي شرطي يومئ إليّ بالتوقف.

انقطع الاتصال وانتظرت ما بين النصف ساعة إلى الأربعين دقيقة أفكر فيما قد يحصل له في هذا الليل.

ما هذا الحظ السيئ يا الله، أيقع الآن فريسة شرطي غاضب، حتما لن يدعوه يعود إلى بيته، فلو كانوا لعاود الاتصال.

اتصلت به مرة تلو الأخرى، دون جدوى فكان للقلق مني نصيب، في البداية كان جرس هاتف يدق طويلا دون إجابة، ثم وفي منتصف الليل أغلق الجوال، صار خارج الخدمة، اتصلت ببيت والده فردّت عليّ إحدى أخواته، فأغلقت على الفور دون أن أنبس ببنت شفة.

أن تعيش في فلسطين وتقدر على أن تحب وتعشق وتواعد حبيبتك، هذه مقاومة. أنْ تحتسي قهوتك في مقهى عتيق قرب الميناء الحزين وتدخن سيجارتك بنهم، هذه مقاومة.

أن تشتري باقة زهور وترسلها إليها مشاكسة صباحية، هذه مقاومة. أن تسرق من العمر ساعة عابرة تنفقها في الوقوف عند ناصية شارع يئن

بالشّوق ترصد خطاها فهذه، مقاومة. أن تقدر على تقبيلها بكامل الرّجولة لتمنحها كامل الأنوثة، فهذه مقاومة.

انتظرت أن يأتي الصباح بفارغ الصبر، كم كان الليل ثقيلا، تمرّغتُ في أذيال الوسائد، تتصيدني الهواجس، اضربوه مزّقوا قميصه، اقتلوه بعثروا دمه، ربما ألقوه معتقلاً بين جدران قذرة.

بقيت أقفز من احتمال إلى احتمال، حتى طَلُع الصبح.

اتصلت بي ولأنني من الناصرة طلبت مني أرقام أقسام الشرطة في المدينة وإن أمكن أنْ تدلّها عمن تسأله، فالشرطي العربي قد يسهل عليها طريق البحث، جمعت لها أرقام جميع الأقسام لدي، ومن واحد إلى آخر، والكلّ يعطينا نفس الجواب: "لا علم لنا بأي حادثة مماثلة خلال الليلة الماضية." بقينا نحاول مع أقسام أخرى في المدن القريبة من المنطقة، إلى أن تذكرت أنني أعرف شرطياً يعمل في أحد أقسام شرطة الناصرة .

- طمئنيني هل حصلت على المعلومات؟

- لا، فشلت كل المحاولات، أشعر بالأسى يا سحر.

- انتظري دقائق وأعود إليكِ.

أنهت المحادثة وسرعان ما عاودت الاتصال بي ثانية.

سجلي هذا الرقم وقولي له أنكِ من طرفي، وإن شاء الله يكون ما يرضيك.

شكراً حبيبتي شكراً.

بسرعة أغلقت الخط معي وأجرت الاتصال بالرّقم.

كان المتحدث من الجهة الأخرى شرطياً مسيحياً، طلب مني الاسم الثلاثي ورقم الهوية، أو أية معلومات أخرى أعرفها عن محمد.

أعطيته الاسم الثلاثي ومكان الاعتقال، فهذا كلّ ما كان متاحاً لي أن أمنحه لشرطي وإن كان من أجل تقديم المساعدة.

طلب مني غلق الخط ومعاودة الاتصال به بعد ربع ساعة، متعهداً بالحصول على أية معلومات تفيدني في البحث.

أربع عشرة دقيقة مرت مثل دهر رث مترامي الوجع، حاولت ضبط أعصابي على توقيت الدقيقة الخامسة عشرة، لكنني فشلت من ثقل القلق، وبلادة الوقت، طلبت الرقم مرة أخرى قبل انقضاء الدقيقة الخامسة عشرة، بدقيقة فقط، ليخبرني بمكان احتجازه وأن لديه محاكمة سريعة مساء اليوم الجمعة.

توجهت من فوري إلى المركز فهو لا يبعد عني مسافة كبيرة.

أصبح الواحد منا عندما يريد الخروج من بيته ينتابه القلق الشديد، وتتلاعب به الهواجس والظنون، فهو لا يدري هل سيعود إلى أهله سالماً؟ أو أنه سيلبي دعوةً قسريةً من أحد أرقى أماكن الاستجمام والراحة في بلادنا، فحُقّ لبدنك المهرول دائماً، وروحك المنهكة أبداً، أن تنالا هذه الجائزة حتى ولو كانت دون رضاً منك أو أنها بالقوة الجبرية، بل إن الشيء الجميل في هذا الأمر أنه يحدث لسببين عجيبين لا يمكن لأي منا تلافيهما، مهما بلغ به الحرص أو أعياه الاجتهاد، فهما كالقدر المحتوم الذي لا مفرّ له منه، إنهما: رجل المخابرات، والقوانين الكونية، فهل يُعقل أن تمشي في شارع أو تعبر طريقاً دون أن تصادف أحدهما أو كليهما؟ بل إنّني لا أبالغ إذا قلت بأنك ستجدهما حتى في الأماكن غير المتوقعة، وداخل الأزقة والحارات، وساعتها أنت ونصيبك، هل يصطادك مزاج رجل المخابرات المعكّر أو عطل القانون المتكرر، وفي كلتا الحالتين أنت تستحق جائزتك القيّمة وهي الاستضافة المجانية لدى الإدارة المدنية التي لا أبالغ في وصف مدى احترامها لكرامتك الإنسانية وحقوقك الشخصية، فآل صهيون يعلمون علم اليقين أنك لست مجرماً عتيّاً، أو عدواً بغيّاً، أو خائناً شقيّاً، وإنما أنت مرتكب مخالفة كونيّة لكونك تحمل فصيلة دم فلسطينية، بغض النظر عن مدى صحتها من عدمه، فرجل المخابرات معصومٌ من الخطأ، والقوانين والإشارات والتهم محفوظةٌ من العطب، كما أنَّ هذه المخالفة ولو حدثت فإنها غالباً ليست مقصودة، وهي مثل أي خطأ بشري يتجاوز عنه ربّ العباد فما بالك بالعباد أمثالك؟ ولا تستغرب إن قيل عنه إنّه

مجنون فرَّ من قسم الأمراض العقلية، أو يعاني من مشكلات عائلية واجتماعية أودت به إلى مثل هذا التصرف ثم يرسل إلى مراكز لإعادة تأهيل، وأنت ترسل إلى المضافة الإدارية إلى حين.

إن إدراك كثيرٍ من رجال المخابرات والفرد العادي في هذا الشعب لهذه الحقائق الواضحة يجعلهم يتفانون في التعاطي الإنساني والأخلاقي والديني مع ضيفهم النزيل طيلة فترة احتجازه لديهم، فهم يراعون المريض وكبير السن وذوي الحاجات ويحرصون على راحتهم وتقدير ظروفهم، ويسعون بكل جدٍّ وإخلاص كي لا يشعر أحد من ضيوفهم أنه في معتقل أو زنزانة لا تليق إلا بعُتلاء خارجين عن نظام القانون، كما أنهم يحترمون الممتلكات الشخصية فإنْ كان الأمر يستدعي استضافة المركبة مع صاحبها، فهم يعلمون تمام العلم بأنَّ هذه المركبة ليست لقيطةً أو مستباحةً أو أنها غنيمةُ حربٍ، لا يهُمّ ما يحدث لها من تخريبٍ أو تكسيرٍ أو تشويهٍ نتيجة سحبها العشوائي والهرولة بها إلى حيث يُلقى بها في ساحة مكشوفة، وأيضا إلى حين أنَّهم يُبالغون في تعاملهم الراقي فلا يدعون مجالا للهفة الأهالي ولا لقلقهم على ذويهم، فيسارعون لتهدئة خواطرهم وطمأنة نفوسهم وإبلاغهم بأن الأمر لا يعدو كوْنه تنفيذاً لبعض الإجراءات النظامية بطريقة عادلة ونزيهة ومتساوية بين الجميع حفاظا على سلامة وأمن البلاد، وغالبا يدّعون أنه ليس لديهم علم بهذا الاسم أو ذاك.

إنني حقاً أغبط رجال المخابرات على ما يتمتعون به من مكانة عالية وسلطة لا متناهية جعلتهم يتفوقون حتى على قضاة المحاكم فيما يصدرونه من أحكام تعزيرية، بل إنهم يفضلون عنهم رغم ضعف مؤهلات كثير منهم بأن أحكامهم ليس لها نقض أو تمييز فهي قاطعة مانعة واجبة التنفيذ، وأعتقد أنَّ هذا الوضع غير الطبيعي الذي يحظى به رجال المخابرات هو ما جعل أحدهم يُفَاخر على الملأ بلا خجلٍ أو وَجلٍ أنَّ أهل المنطقة التي يُدِيرُ أمنها وسجونها يصفونه برئيس المجلس المحلي لكثرة ما يضع في طرقهم من أوراق تلزمهم الغالي والرخيص لتعرقل حياتهم وتسبب لهم التوقيع، فالوقوع في فخ الانتماء وتستدرجهم نحو المخالفة الكبرى "مواطنة"، بل ويتباهى بتكديس الناس في ذلك المبنى الحقير الذي يسمونه مجازاً بالتوقيف الإداري، وإنه لولا صغر مساحته لصادر أكبر عدد ممكن من حريات الآخرين ربما ليدخل به موسوعة غينيس للأرقام القياسية، وليته توقف عند هذا الحدّ ولكن التمادي على قدر التغاضي، فتجده يُتحفنا بين الحين والآخر بتصريحاته المسلية وتصرفاته الغريبة، فعندما يتم انتقاد إدارته لعدم قدرتها على تحقّق الأمن، وفكّ الاشتباكات والتسبب في المعاناة المستمرة للمواطنين والمقيمين والزائرين بسبب تخطيطه العقيم، واجتهاداته الخاطئة، وفشله المعتاد، يتقمص دور الخبير الاستراتيجي ويُلقي باللائمة على العيوب الإستراتيجية الإنشائية للحواجز والمعابر التي طالما نبّه إليها وحذّر منها، وآخر إبداعات هذا المسؤول القيادي ذي الرتبة الرفيعة التوجيه بذلك السلوك الحضاري المتميز الذي يُذَكِّرُنا بشقاوة زمن

الطفولة البريئة والمتمثل في إفراغ الهواء من الرئة أو ما نُسميه بلهجتنا اللذيذة "تنفيس" أو سحب الأوكسيجين من المنطقة إلى حدود ألف ميل لأكثر من نصف السكان العرب لمعالجة مشكلة اختناق أمنية، وبهذا القدر من المشاهد والمواقف المؤلمة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية، وواقعاً ليس أمامنا سوى القبول به والتعايش معه فقدنا القدرة على الوثوب.

استلمت أوراق محمد والأوراق التي وقعت عليها تعهدا بألا يطأ بقدميه أرض الإدانات والمقهورين، كان عليّ العودة من المحكمة إلى المركز لاستلام محمد، كما لو أنني أستلم طفلاً ضائعاً أو مشرّداً، ثم بدأنا المفاوضات حول إمكانية استعادته لمركبته، دار النقاش والمفاوضات لمدة ساعة دون فائدة تذكر.

محمد ليس لدي متسع من الوقت وعليّ المغادرة فوراً كي أتمكّن من إيصالك ثم العودة إلى البيت قبل أنْ يلحظ طول غيابي أحد.

وافقني دون أن ينبس ببنت شفة.

قبل أن أغادر مركز الشرطة في زفولون، وددتُ أن أتقدم باسمي ونيابة عن جميع أفراد الشعب المقهور من الداخل والخارج لسعادة مدير عام المركز بجزيل الشكر وعظيم الامتنان وبالغ التقدير على ما تحقق من نجاحاتٍ باهرة وإنجازاتٍ عظيمة، فقد أصبحت النزهات في بلادي متعة

لا تُضاهى والمشي نزهة لا تُمل، وتحولت رحلاتنا اليومية بين مدارسنا وأعمالنا ومصالحنا من جحيمٍ لا يُطاق، ومعاناةٍ لا تنتهي إلى ما يشبه رحلات الترفيه المكوكية المثيرة والمشوقة، التي نَنْعَمُ بها، فالحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

حين ركب محمد إلى السيارة قال:

- أثقلت عليكِ هذا اليوم، فأعذريني.

- هكذا نصير واحداً واحداً يا محمد.

- ماذا تقصدين؟

- أبداً أذكّرك بمعروف لك معي، ثم لا تخش عليّ سوف أقاضيك لاحقاً وأقتص من عمرك الكثير.

- هذا يسعدني، لكنك حتى الآن لم تطلبي مني شيئاً، تعلمين؟ أشتهي أن تطلبي مني شيئا ولو كان صغيرا.

- أنت كل ما أريد، وماذا عساي أطلب وأنت لدي!

كان يمكن أن أسخر منه ومن لحظة شديدة القسوة على أي رجل يتلقى مساعدة بأي شكل كانت من امرأة، وفي كل الأحوال والظروف الصعبة، لكنني قاومت وصمتُّ، ولعلّه لم يدرك الأسباب التي تجعلني أعطف عليه بصفة خاصة، فهو الروح، وكلّ ما ترنو إليه النفس.

لعلّه رأى انعكاسات تلك الفكرة على وجهي، فاعتدل في جلسته فجأة ووضع حزام الأمان، وأشعل سيجارة من علبتي ثم قال:

- إذا أمكنك الإسراع فافعلي، كي لا أوقعك في مزيد من المشكلات مع أهلك، فهذا آخر ما ينقصك.

- معك حق، لا ينقصني سوى شجار آخر مع الممحاة كي أفقد المتبقي من العقل، لكنني برغم تخوفي الشديد إلا أنني أريد قضاء أكبر وقت ممكن معك، أشعر أننا لن نلتقي، على الأقل الفترة القادمة.

إنَّ الطريق من قرية زفولون إلى حاجز سالم تبعد مسافة قصيرة أقصر من الطريق من العفولة إلى حاجز الجلمة، جزء كبير منها مضاء والجزء المتبقي من المسافة مظلم بالكاد ترى الخط الأصفر الفاصل بين الطريق وحاشية الرّصيف، والخط الأبيض تلاشى كأنه كان هنا، هكذا تكون غالبية الطرق المؤدية إلى قرية أو بلدة عربية، مهملة إلى أبعد حد.

- لا تكوني متشائمة، حمقاء، أحبك بكل الحمق الذي تبدين والذي لا تبدين، أشعر أنني تغلغلت في هذا المساء عميقاً في أسرار سمرتك، فأنت اليوم تبدين مثل ملكات العراق القدامى.

- هذا غير صحيح أنت تحاول مغازلتي للتخفيف ليس إلا.

- وهل تشككين بصدق كلامي؟

- لا لا.. أبداً.

- ولكن؟

- ليس من عادتك الغزل.

- في هذه صدقتِ.

عندما وصلنا حاجز سالم كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً، وليس هنالك معنىً للوقت الموغل في السخرية؟ أوقفت السيارة بالقرب من الحاجز، إلى أقصى اليمين لأتمكن من وداعه قبل أن ينطلق إلى بيته، نظرت إليه لأجده محدّقاً بي كأنها آخر مرة، تفضحه النظرة الكسيحة.

- لحظة ملعونة، هذه التي وسّعت المسافة بيننا، ليت باستطاعتي أن أدخلك معي وألا ترحلي أبداً.

- ربما ذات يوم نلتقي بتباشير الصبح ونعانق منابع الأمل، هيا ارحل الآن، لا بدّ من إيقاف اللحظة قبل أن نمنحها فرصة لقتلنا فيما بعد.

- ربما...

أفلت يدي، توقفتُ وأدرتُ عيني المحتارتين إليه، كان قد ترجل وبقي واقفاً بالقرب.

- لحظة من فضلك، سوف أشتاق لك.

ثم سار باتجاه الحاجز بصمت مريب، لحظة تمزّق القلوب وتخرج منها النور. وليدة القهر وما أكثر مواليده. أردت البقاء إلى أن يختفي عن النظر، لكن الخوف سيطر عليّ تلك اللحظة، فاستدرت عائدة إلى حيفا، لأواجه قلق أهلي وتخوفهم، رغم أنه حتى اللحظة لم يتصل بي أي منهم.

هبط الغسق سريعاً في ذلك اليوم فهرعتُ إلى النوم، رغبة في الابتعاد عن الأسئلة في نظراتهم، وقبل أن ينتشر ظلام الليل دق جرس هاتفي فسرت في جسدي رعشة البرد حين يحتكم الشوق ليعلم من حولي أنّ شيئا حياً بداخلي، وبذلك هتكت يا للغباء سرّ تأملي.

إن الآلام لا يصقلها إلا الذين ترفعوا عن آناتهم وإنَّ الجرح العميقَ لا يكتمل لكي يبرأ إلا إذا اكتشفه البسطاء جداً.

لأني قصدت التيه بل لأنني ولدت وسطه، كنتُ أرى طريقنا شائكا طويلاً، مما جعلني بالفعل أفكر بالهرب أكثر من مرة.

وكنت أعلم أن جبالا شاهقة تقف لي بالمرصاد ولكأنها القانون يحرس شرذمة مجتمعنا.

أحببتهُ جداً، وكنتُ أفخر به وجداً، لم أره بعد ذلك طيلة فترة طويلة، وهمس الأمس لا زال يحتد عذوبة، أذيبها في كؤوس الصبر العقيم، لا شيء يلملم دياجير الليل ويخرجني من فاه الجنون، لا أحد يقيني غرور طيفه الحزين الماثل أمامي مثل مدفأة منطفئة، لا أحد يحتمل الرياح المغبّرة

المملحة، تمر من فوق رأسه ومن بين أصابعه، تفضح عيوب وشم عار. تهتك نكهة البحر، وتفتك بالكحل.

في الجبال كنا نبحث عن مقعد فيه نقطة ارتفاع تمنحنا رؤية كل شيء إلا نحن، فقد كنا نعتقد أنَّ أجمل إحساس على الإطلاق هو أن تقف على نقطة ترى منها كل شيء ولا ترى نفسك، في حينها كان أجمل إحساس، لكن عندما هبطنا منها وتذكرنا تبين أنه أكثر الآلام إيلاما بك.

ذات احتراق تعلمنا أن كل شيء يتبعثر، يتناثر بعيدا، يتلاشى خلف الاحتمال فأنساني جنون الاشتعال إلا، هدية الله، كان هدية الله إليّ، من الذي قال أن الأمر قد انتهى؟

حين تكون مثل متلقي السياط تحت وطأة الأنخاب، ولأنَّنا في النهاية بشر نجوع ونألم، نريد ونرغب، ونمارس حتى النسيان، فقدتُ إلى حد ما ذاكرة الأمس هكذا فقط كي لا أألم.

تتأجج في النفس أمنية تدفعنا إلى أن نتلاءم مع الأمطار ولا ننفك نعبّر عن دهشة نقتطع كسرة فرح نحملها على وجه التراب ونمضي هكذا على نحو لم يكن بالحسبان، إنه طريق اللاعودة طريق مشروعات كبرى تتراءى لنا المدينة وإرثنا المشروع يتراقص في نشوة فواصل يدهش المقامرين أولئك الذين توقفوا عن السير خائفين من صور لم تبرح خيالهم .

هذه المرة تغيبت عنه كثيرا على غير عادة، والدتي صارت تمر وحدها أو برفقة شخص آخر استمر الوضع على هذا الحال طويلا إلى أن .

- جاء صوتكِ هذ الصباح.

- تفصلني عنكَ بضعة أميال وحراس ومخالب، أنا في الطريق إليكَ فهل قهوتي حاضرة أم عليّ أن أعود من حيث أنا قادمة؟

- أعيدي أعيدي ما سمعت، ماذا قلت؟

- لا أبداً ما قلتُ شيئاً خلاص آتيك في موعد آخر.

- لا بل تجيئين الآن.

غاب صوتكِ في الفضاء قبل أنْ أدركَ أن طفلتي قادمة، سريعا هرعتُ إلى المحلّ أسابق الفرح، أخيراً عدتِ وأخيرا جئتِ وأخيرا سأقطع حبل الجراح من أوله حتى آخر الشعور.

أحكم قبضته حول عنقي حتى كدت أظنني ميتة بين يديه لا محال، ثم لا أدري كيف ضمني إليه وأردف قائلاً:

- يقتلني بعدك.

كثيرا راودتني نفسي بسؤال الحاجة عنكِ إلا أنني كنتُ أتراجع قبل أن أتقدم، خشية التسبب لكِ بمشكلة جديدة، لكن القلق اعتقلني يا غالية

فاتصلت بكِ ذاك المساء على الجوال، كان قلبي ينتفض وترتعش أوصالي وأخطئ الرقم، ألف مرة أخطأت قبل أن أطلب الرقم الصحيح، كل رنة كانت تسقط قلبي بين قدمي وفكرة واحدة في رأسي أن مكروهاً حصل وأنَّ أمراً خطيرا جدا منعكِ من العودة إليّ، وعندما جاء الجواب وصوت آخر يرد عليّ : هلو ...هلو... هلو... بنبرة مزعجة حادة تخيّلت صاحب الصوت شخصا فظا غليظا، أقفلت الخط على الفور فقد توقعتُ سيل الشتائم الذي من الممكن أن أرشق به، في حال طلبت التحدث إليكِ، وأدركتُ أنَّ مكروها وقع، وأن حدسي لم يخنّي، تخيلتُ كلَّ الأشياء البشعة والممكنة وغير الممكنة تمارس عليكِ في الضفة الأخرى وأنني السبب فيما آلت إليه أحوالك، ولم يبقَ لي منكِ إلا ذكرى وانتظار الفرج أو أن يمرّ العمر وأنا أبحث عن شبيهاتك.

أخذ بيدي وسرنا معا حتى وصلنا الكرسي الخشبي المحجوز دوما لي، وجلسنا.

- تلثمني بدفء الأرض يا محمد فأستمر في الاعتقاد أنك لي، لا ليس هذا ما أردتُ قوله، لكنني سوف أحاول إعادة صياغة جملتي ربما أتخلص من زفرة تقف على رأس فمي.

- حاولي.

- أخبرني، أتذكر تلك المصادفة التي جمعتنا مع بعض فقرّبتنا رغم غيبوبة العقل حينها نسيتُ أن أسألك: من أنت؟

- هل تسألينني فعلا من أكون.

- قلتُ من أنت ولم أقل من تكون والفارق كبير.

- رغمَ العوائق اقتربنا وملأتَ فراغات النبض بنبض، تلك الفراغات ما بين النبضة والنبضة لا يملؤها إلا أنت، لا ليس هذا ما أردتُ قوله.

سوف أحاول مرة أخرى.

- حاولي، -ما بكِ؟

- إنّي إذا ما وقعت في مخالب الشتاء برفقتك توجب عليّ أن أدعك ترحل لأستبين الأسباب، فلا يمكن أن أسقط في براثِن البرد، إلا أنه ضَرْبُ الساعة مشيراً أن الوقت شارف على النفاد، فهيا نلج النهاية يا رفيق قبل أن يصدر الحكم علينا بالموت قهراً.

- لا ليس هذا ما أردتِ قوله، كوني أكثر صراحة، أو توقفي إذا، لا تقولي شيئاً.

- سوف أحاول مرة أخيرة فكأني اليوم لست أنا ولا هذا الفم فمي.

عندما أصل إلى مرحلة أقول لك معها أريد منك طفلا فاعلم أنني سوف أدفعك إلى أقاصي الدنيا كي لا يكون لك وليَّ عهد، فعهدي معك لن ينتهي ولا أريد لك وريثا ذكرا، فالوراثة عندي ليست وراثة نسل إنما وراثة ملكية.

- أريد منكِ ولدا، يشبهك، وله ذات الرائحة، وأريد منه أن يمنحني ما تمنحينني أنتِ من الدفء.

- لن يكون لي أولادٌ إلا منكِ فاهنأ، هذا الموقد لا يوقد إلا من أجلك.

- دعي اللقاء يجيء بلا تكلفة أو مبالغة إذاً.

مرت سنون لم أحدث فيها أحدا، تمددتُ تحت أردية السكون رافضة لقاء أيٍّ كان، سكنني الانكسار وكل ما كنت أفعله هو الذهاب إلى العمل والعودة من العمل، حتى اتصالاته ما عدت أردّ عليها، طاردته في أروقة الذاكرة، أستعيد كل لقاء وكل حديث، أطرح أمامي جميع المناوشات أضربها أقسمها حاولتُ جاهدة التوصل إلى سبب مقنع لهذا الانسلاخ الرهيب دائما كانت محاولاتي تبوء بالفشل، وفي الليل ويح الليل أحتضن الوسائد أعض على أطرافها، وأصرخ في أعماقها، كي تبتلع صوتي وتخفيه قبل أن يسمعه أحد، عقارب الساعة تلدغ أوقاتي والذكريات الحزينة ما أقساها، إنّها لا تتغبّر ولا تصاب حتى بالتسوّس، هي المعافاة دوما والسليمة دوما، ونحن البرابرة والحمقى والمعطّلون دوما، نحن من جعلنا من أنفسنا محطة قطار يستريح فيها العابرون مما أصاب أفكارنا بالثرثرة وأصاب النظر بالذهول، فضقن ذرعاً بنا الضفاف، حتى الصمت صار يثرثر بصوتٍ مسموع.

ونتأمل كي نغرق في أعماقنا وربما تمكّنا ذات عمر من أن نتعرف بنا أكثر، تخيّل معي أن تجف الروح بعد ارتواء، وكم من الأشياء سنفعلها ولا ترويننا!

أكثر ما كنا نخشاه أن تصبح أجسادنا ذاكرة مثل عيدان الجبائر نشدّ عليها لتجبرها على الاستواء.

إنه الانكسار، أي ردٍّ عليه أو عوضه لن يردّ عليه ما ذهب منه، وإن ثبات القلوب على ما فطرت عليه شقاء، فثبّت عقلك المعاصر واللاحق على الأشياء التي سوف تقود الأمة إلى علياء.

روجوا تلك الشائعات والخرافات للتقليل من شأن العبير، أفكار مغلّفة جاهزة للاستهلاك الخارجي، مثل منتج لترطيب البشرة فعّال إلى أن يطأه الماء.

-قمْ توضأ يا محمد وامسح عن ظهرك آثار أظافري، جرب أن تزيل أحمر الشفاه عن ياقة قميصك، فأنت خطيئتها اللذيذة، إن ذكرياتنا جعلت لتطهرنا تارة وتارة أخرى تثيرنا.

- أبيت بارتجاف هستيري من أحمق طائش يراني، ومن حيث لا أراه يخرق جدار الليل، يباغتني في الحلم ليروي ظمأ النعاس.

- ألم تتعلم يا رفيقي أن الأحلام ما هي إلا فراغ هادئ يفصل مذبحة عن ملحمة ليوصل بعد ذلك القطب بالقطب والدّم بالدّم، وننتهي بألف كفن محمول على أكتاف الأحلام التي نجت بأعجوبة من مذبحة بحثا عن منتهى.

- وإذا خبطت ظلماء الحلم أفضت بنا إلى مكروه الواقع الحقيق.

- لماذا تصمت إذا كصنم، أصرخ في وجهك: ألم تقل أنّ للصمت بقية؟ أكمل...

- تأكل المدينة قلبي، تتسع مساحة الرمال فيها فتقتل السكينة فينا، سنيّ عمر مطوية في صندوق أحكم ربطه بخيط أمل حد الوجع، فيه هلع وعربدة مواعيد مؤجلة، أصابه الطحلب.

استحضرت صعلكاتي وحماقاتي خصوما للنصيحة إذا ما ارتميت فوق صدرك عارية إلا من أنوثتي، سافرتَ بي إلى طيّات عطرك تراودني عن نفسي فأنساق وراءك أمزق الأستار، أخترق كل جدار علّني أصل إلى قرار أعماقك، غير أنك وبعد جهد كبير فتحت الصندوق حاملا بين طيات ذاكرتك شظايا، ما فتئت تنغل في الرأس ليل نهار لتجدني هناك.

- ما وجدتُ في صندوقك إلا درراً كعين النبع الوحيد، لم أجد إلا تراتيل من أحمق تداعت الكلمات بين يديه، كلي منساق إليه كـــسيمفونية تعزفها

القلوب لا يعرفها إلا الراسخون في البؤس والحاملون لجين التعاسة على امتداد أرض مذأبة، كيف له أن يحاول بعد أن هجر أرض الذئبة تاركا لي صورة ضوئية أنيقة بلون الفقد ليذهب بحثا عن خيبة أخرى تضاف لقائمة الانكسار، كيف له أن يبحث عن قبر بعدما كفّن الوطن.

-فقؤوا أعيننا فكيف أكافئهم؟! وكيف لا أخشى الصحو إن أنا أيقنت رحيله، ولعلّ الصعوبة لن تكون في إيجاد البديل، بل في البحث عن شبيه به.

كنتُ حسبتني تجاوزتُ الصعاب، كنتُ مخطئة فها هي للتو بدأت رحلة أخرى خلقوها ليسخروا ويستهزئوا، ولئن سألتهم قالوا: أنتِ ضالة وواجب علينا نصحك.

آه كم أنفقتُ فيه من الصبر وكم ضيّعتُ في سبيل الفرح أثر عطره، وكم نبّهت بضرورة الصحوة والانتباه والتمسك الصحيح بكلا الضفتين، كلها أشياء تفضي إلى الجدار، وأسباب القلق فيه أسوأ ما تتصوره العقول.

على كل حال فإن الشعور الذي كان مستولياً عليّ في تلك الفترة أنني بمأمن من خطر أو تهديد بالقتل.

من على الضفة الأخرى تتراءى الجراح، من صميم المعتقدات نفتعل الأشياء كي نفجر الحجر، كي نصل إلى نظرة أصوب وأقوم، نظرة تتيح لنا لمح نوع آخر من الأسباب، غير مرتبط تماما بما هو من حولك، ولا نمتنع عن تعطيلها متى شئنا، تبا ألسنا هنا في أشدّ حالات الغباء؟ عقول تغربل وتمحص، وتجمع بين الضفاف للوصول إلى تلاحم وطني، وهناك عقول

إمعة تنقاد بشكل سلس إلى المسارات التي يريدها الخصم، وهناك من توقف عقله.

في آخر الليل، وفي كل مساء أتلو على قلبي دعوة الأمل، ثم أقفل الضلوع بعد التلاوة على الضفتين، ولأن الدنيا في قلبي وعيني خضراء أكثر مما يجب، وأن الطمع يغويني لأستلهم الطرق مروراً بالسهو بالدعاء والأمل فالقول أنني لست أنانية ضرب من طموح أحمق، قد تكون كلمة "رغبة" مناسبة للسياق أكثر من "حاجة"، فالحاجة والرغبة أمران هما أبعد ما يكونان عن الترادف، فوحدي أنـا التي تسهى في الدعوات تتلو "أن ربنا اهدنا توحيد الضفتين" ووَحْدي أنا التي تخشع في الحياة وتسكن معها جوارحها، ووحدي أنا التي ستذكر بحسرة كيف كانت تسهى في المساء حين تخطو رجلها على سجادة الانسلاخ.

- ذات حلم رأيتكِ زهرة تنبت في صحراء نفسي، خفت أن أقصّ عليك الرؤيا فتذبل!

- تعال وأقم تحت جلدي، خذ نفساً من أعماقي وأرسل الدفء إلى أوردتي، فمذ عرفتك صار الصقيع يلازمني كـظلي، ازرعني في ياقة القميص خذني بدلاً من عطرك، كـي أغوص فيك خجلا من الخطيئة وأتقاتل مع النوم وأدور في مداراتك بحثا عن غفوة بين عينيك.

أشعل لفافتَي تبغ، ناولني واحدة وطلب القهوة، ثم أردف قائلا:
- ينبغي أن نشعر بالإنسانية بين أرداف الزمن المنتن بالمآسي، وأن نشعر بشيء من التعاطف تجاه الفقير والمساكين واليتامى، لأننا أبناء وطن واحد، ولكن كي يتحقق الهدف النبيل من الإنسانية نحتاج إلى الكثير من الأنانية إلى المرحلة التي تجعلنا نفكر أكثر في مصير "أبناء وطن واحد" أبناء الضفاف المرحلة الأزلية بعد الخطوة الأولى نحو الطريق إلى توحيد الصف نحو الهدف.

- لذا فإنَّ من الأنانية المفرطة في جمالها الأخّاذ أن نزرع الصداقات رجاءً في خلاص أنفسنا من المهلكة الوحيدة، التي يجب أن نذكر أنفسنا بها في زيارات مقابر الأسبقين منّا إليها.

- بعض الاقتلاع لا يعاد غرسه، اقتلعونا من التراب كما يخلع الظفر من جلده.

- كل فصل يحاولون غرسنا من جديد، كم صرت أشتاق أن أتهيأ لشق أثلام الحقول طولاً وعرضاً، وأتقلب في باطن الأرض بحثاً عن طاقة أشقها، وأنمو كما ينمو الحنون، أن يلفني التيه بعد شتاء، ألامس سحب تطرفي ليصلني بالجنون المطلق، وأشنق بالعذابات واطويني هكذا تماما كما موسم الحصاد.

- تشقيني الحمائم النائحة على أسطح الجيران، والريح تخلّع الأبواب ويزداد جوع القلب حنينا إليهم، والسفن المنقوش عليها "عائدون" ستعلم لاحقا بأنها صنعت لغير أغراض العودة، فها نحن هنا ضفتين وشواطئ مترامية لا يلتقين.

- إنها شياطين التفاصيل حين تلاحق الأفكار تطارد سفن الموانئ الأرملة عندما أيْقَنَتْ بديهية بقائها فوق حبات الرمل فمن يبرهن أو يمنطق لها أسباب العودة إلى شواطئ لا تثق بالريح وحقيقة جدوى الانتظار.

أشعل سيجارة المارلبورو الأبيض، وراح يزم شفتيه حول عنقها، يمتص السمّ وينفثه في الفضاء محرقا معه أوقاتي غير مبالٍ، تصرف يدعو إلى الغضب، يفجر النفس المسحوقة، وتهرع الجراح تُجهّز لنا مسرحا نعلق عليه المشانق، ونهر الدم المتدفق يصير أكثر اتساعا، تضيق بنا المقاعد فنغادر دون حتى أن ننبس ببنت وداع.

كان بالنسبة لي مشروع تحدٍ كبير، أن أثبت للعالم أنّا نحب وأن الحب بيننا ليس في سبيل هوية أو تصريح عمل، إنما نحب لأننا بشر، نحب لمجرد الحب بدون أغراض أو مصالح شخصية، إلا أنني فشلت فشلا ذريعا وأثبت للعالم قاعدة أخرى جديدة تثبت نسبتها حسبما يعطي الآخر من أحقية للمعادلة كي نثبت أنها ممكنة، أن يصير الحبيب رفيقا بعدما كان عشيقاً مشتهى.

ما توقفتُ عن اشتهائه لا لأنه توقف عن أداء دور الرجولة، بل لأن القاعدة التي سبق وادعى الآخرون ثباتها تبين أنها ليست ثابتة بالمطلق ولأنَّ شدة الألم حالت بيني وبين أناي ولأنَّ الهدف منه ما كان خالصاً لـ"أنا" فصرت لا أراني عند التعامل معه، لذا فقد كان من السهل عليّ إعادته إلى مراتب الرِّفقة.

ما كانت الحدود تعني لنا شيئا قبل بدء انتفاضة الأقصى، ثم بدأ استجلاء ملامح المرحلة القادمة مما أشار إلى احتمالية حدوث كوارث الانقسام والتقسيم، فيما بعد صارت الحدود مثل كابوس يعني الانفجار والثمن الباهظ حين تعطّل العقل في زمن الحقيقة، في زمن الهلوسة بالسيوف ضد بعضنا البعض، تعتكف الإنسانية برحيقها بعيدا عنا، لذا لم يكن بمقدورنا أن نكون أقوى و أوعى، فالمركب في عرض البحر يضمن نجاته التجديف بمجدافين لا بواحد. فنتج عن ذلك ظهور أفكار وآفات اجتماعية كان من شأنها أن جعلت المسافات ما بيننا شاسعة أكثر مما زاد الكثير من الأمور تعقيداً خاصة في حياتنا الشخصية، فكنا مجنونين عابرين في زمن عاقل، كما لو أن عيوننا لم تألف بعضها بعضا، كما لو أننا لم نتبادل الهمس بين الفناجين، كما لو كان رجلاً آخر وأنني أنثى أخرى لا أعرفني.

كنت أكثر منهم استغرابا لحالي، لكنني كنت أجد راحة خفيّة عميقة في داخلي تهدئ من غليان قلبي، ألمس طمأنينة تجعلني أنظر لواقعي بدون حجاب، أشم عطره يفوح من بعيد تغلب عليه رائحة الشرقي الأصيل،

أسمع صوته يناديني من أعماقي، تعتريني ارتعاشات، كما لو كنتُ خرقة مشلوحة على أغصان شجرة عارية، أنظر لأفق الرجاء فأرى دموعا حيارى تنزلق وأخرى نبتلعها كما شهقة الموت الأخير.

لمَ يا أمي نقبض ثمن الألم دوما سلفاً، وندفع ثمن الفرِح سلفاً وعمرنا نقترض منه ونقرضه؟ ونتركُ مثل معاول بلا أذرع.

كثيرا ما كان يعنّفني أخي كلما علم بأمر تواصلي مع محمد، وكثيرا ما كانت تعتصرني محاولة الكشف عن أساس المشكلة، لكنّني فشلت. واحدٌ يقول بأن هذه العائلة منحلّة فلا أرى انحلالاً، وواحدٌ يقول: بأنّ تلك العائلة إرهابيّة فلا أرى إرهاباً، وأنا بينهما كالكُرَة يقذفني هذا إلى ذاك ويُعيدني ذاك إلى هنا.

**فتّوش..**

- سحر

- هلا ليالي

- لنلتقِ في فتوش بعد ساعة

- مشتاقة إليكِ

- وأنا أكثر ولدي الكثير وقد يكون الأخير.

- ماذا تقصدين.؟

- عندما نلتقي سوف تعلمين.

وكـــالعادة جالسة في أقصى مقعد في المقهى، ربما كان محجوزا من أجلها فصاحب المقهى أحد رفاقها المقربين، والذي تكن له الاحترام الشديد، كانت تظل تقول عنه "مسيحي، ولكنه أكثر وطنية مني"، كانت تجلس

بهدوء مريب وازداد وجهها الناعم الأسمر نحولاً، أمامها قلم وقرطاس وسيجارة مسحوقة في المنفضة الخشبية.

- ماذا تكتبين؟

- أبدا أحرّض المعذّبين فقط.

- لو أن الزفرات ترتسم على الجدران لأصبحت فلسطين كلها جداراً، عندما ينام الجميع أملأ جيوبي بالطباشير، ولو أنّ الخطايا ترتسم على الجباه لما خرج فلسطيني من داره.

- تخيّلي يا سحر كلما سقطت في نوبة بكاء، جعلت أمي يدها اليمنى على رأسي وراحت تردّد: بسم الله، بسم الشافي، بسم المعافي.

- يا الله حتى الحب صرنا نرقي أنفسنا منه كما نرقى من مسّ الجان.

- من يرقيني من شرّ سحره ويزوِّدني بحبٍ نادر الوفرة كما حبه، حتى ينبت فيّ كل شيء أصلب وأقوى....

- واصلا السير غريبين إلى موعد الغفلة، ثم افترقا لأكثر الأشياء سذاجة.

- لم أحاول إقناع نفسي أننا لن نلتقي مصادفة في مكان تعودنا على المواعدة فيه، واظبت متعمدة المرور بتلك الأماكن مقنعة نفسي بصدق

حدسي، أنه سبقني إلى هناك وحجز مقعدا، لم أكذب عطره الذي يملأ أزقة رأسي، وقبل أن نلمح بعضنا تواصل العيون الهروب نحو العدم.

- لم أقل بأنك تحاولين، لكن عباراتك هذه مكتوبة في رأسي بالفحم، وأنا ملتصقة بطبقتي، أريد أن أكتب عن المعذّبين وأشتم ملء فمي، أريد أن أصرخ وأهجو كل المجرمين.

- ومن هم المجرمون في اعتقادك.

- أنتِ ومحمد أول من ارتكب الجرم.

- تباً لك كيف نكون مجرمين؟

- ألستما الغرباء، وفعلتما ما هو غير منطقي للعالم العاقل؟

- تقصدين الحب؟

- لا بل الوطنية.

- ومتى كانت الوطنية جرماً؟

- في الزمن العاقل تعد جرما قبيحا، وحيثما نظرت قرأتُ اسمكما الثوري.

- لا تنمّقي جملك فلست أستطيع مجاراتك.

- وهل استطعت يوما ربح نصف معركة معك؟

- صرت ترينها معركة، الحمد لله وأخيراً فهمتِ القضيّة.

- ومن قال لك بأنّي لم أفهمها منذ البداية؟

- لا أدري، كنت تبدين غالباً اللامبالاة والبرودة، فظننتك لا تشعرين.

- فارق كبير بين الفهم والشعور، فقد نفهم ولا نشعر وقد نشعر ولا نفهم.

- كيف.

- كما تحبين محمد، كما يحبك.

- سوف أترك عند آخر بوابة للصبر ذاكرتي التي لوثناها بحماقاتنا، وما بيننا انتحر مع آخر فرصة لرقود الوهم.

أعتقد أنني أصبحت متقدمة جداً في السن إلى درجة تجعلني أكف عن الاعتقاد أنني سأجد "خرافتي".

كثيرا ما نعتقد أننا نُحسن إلى الآخرين حين نقول لهم الحقائق عارية من "المجاملة " ونكرههم بكل ما أوتينا من خيبة حين يقايضوننا النفاق، وكثيراً ما صرت أعتقد أنَّ فرحي وانبهاري بأول ثوب عيد حصلت عليه لم يكن سوى حماقة بريئة!

وقد اعتقدت أن المسافة أصبحت أقصر والأشياء أقرب، إلا أن الحقيقة هي أن المسافة أصبحت أطول والأشياء أرخص!

مع مرور الوقت والتحضّر اكتشفت أن المجتمعات في زمن الحمام الزاجل كانت أكثر تواصلا واقترابا منهم الآن، برغم التطورات والتقدم لم يكن الإنسان أكثر بعدا منه الآن، في حين أصبح الهاتف النقال أشبه بحبة المورفين التي نحملها معنا حتى وإن دخلنا المخدع، لذا لا أستغرب من

حالات التشنج والاختناق على سطح هذا الكوكب، فبرغم توقف العلاقة بينهما مازلت أتصل بها ويرد عليّ عاصم.

كم من الأفواه الآن تأكل جوف هذا الفضاء، وكم من الكلمات ستعلقني إذا مددت كفي في الفراغ الممتد في شوارعنا الحمراء؟ ثم من يقوم بغسل جولاتنا بعد خلودنا إلى النوم، لم عليها أن تحتمل كل ليلة هذا الكم من كوابيس الزيف والهراء النتن، في حين نغط نحن في أحلامنا على سرر مطهّرة، بينما يغط البعض الآخر في أغطية مغرقة بالمسك والبعض الآخر في خرق بلّلها دم العذارى، في حين يمتهن البعض الآخر العري كل مساء تحت شعار الشحاتة لإعادة اللاجئ إلى أرضه.

رغم تقديري الجمّ لأحلامنا الصغيرة إلا أنني نويت التعرض إليها بـوضعها في دورة ونصف الدورة في غسالة أمي الأوتوماتيكية، بسرعة 800 دورة في الدقيقة، فليس ثمة ما يشبه الأشياء النقية.

- حتى الأحلام لابد أن تغسل من الوهم، حتى القبح النظيف أفضل بكثير من الجمال المتسخ.

- أفرغت كل ما كان بداخلي من شحنات كهرومغناطيسية، ومن أحلام، ولسوف أتركه عالقا داخل فردة حذائي أسفل القدم، ولن أخرجه إلا إذا تأكدت أنه لسوف يميع تحت قلم.

- من قال لكَ أني نسيت، من قال أني أشرع الأبواب للعابرين بجانب أسوار مدينتي، من قال أني لغيرك نظرتُ نظرتي الثانية واقترفتُ خطيئة النظر؟ لا ما فعلتُ لا ولا قلتُ، هم يصرّون أن نستمرّ على عهد عزف القبيلة.

- لا ترتلي وراء أسراب الغربان، لا تصدقي إن قيل أنّي إلى أحلامي أويتُ دونكِ.

- ونفسي ذدتُ بها عن جميع الرِّجال فلا تبالِ إن قيل لك أني عنكَ اعتكفتُ ولا تصدق فأنت ألذّ خطيئة في كتابيَ .

- تلك أيام كانت أشبه بالخيال، أن نهضم ساعات الانتظار الطويلة العذبة وحربا تدور في رؤوسنا حين تجمد الشوق بينهما وصار مثل الجسور الشاهقة، ليالٍ مهدها ألف عمر توجع وحفنة شوق، أي عذاب مارسنا علينا وجرحنا الدفين اللعين ما فارق مسامات الروح، ونعجب كيف استحال العذاب إلى شجرة سنديان نستظل بها وشعورٍ بالفخر يرتدّ إليها فتكبر ويطول عمر الانتظار لحظة نتحسّس الدفء وتأتينا رعشة البرد هاربين إلى غابات الصنوبر بحثا عن كهف!

- شخصياً قررتُ ابتلاع التاريخ المغبّر وقررتُ أن أفرغ رأسي من كافة الشوائب العالقة به، ليت ليالي تفعل مثلي.

- صاحت قدمي ألماً والآن وقد أفرغت كل ما لديَّ وانتهيت منه وبدأت هذه الفكرة تؤتي ثمارها، راجعت ذاكرة الأمس فلم أرَ سوى كذب يتبعه عنقود كذب ويليه عنقود آخر، وأحلامي المضطربة وراء آخر لقاء.

- متى نستعيد زمانا مضى بوفرة وفيض من الحنين؟

- وا أسفاه، ربما إن وجدناه لن تطول متعة الذكرى مع شحن آخر كيس من أكياس السائل الوريدي.

- وسوف نعود ليومياتنا التافهة المملة بأخبار نشل الهواتف المحمولة وسرقة السيارات واغتصاب واقتتال مفزع حول الفتات المتساقط، وننفق الساعات الطوال في استهلاك الخمر والتبغ.

من لحظة سقوطنا فوق هذه الأرض نمنح مهلة لقضاء ما علينا قضاؤه دون أن يتم تحديد المدة الزمنية التي تنتهي بها المهلة الممنوحة لنا لتحقق الأهداف، فلكل شيء في الدنيا مهلة محددة، لكنك لن تعلم إلا بعد بأمر انتهائها، انتهت المهلة المحددة لي مع محمد.

وحدنا على الرّصيف، لمّا وصلنا إلى ناصية الأمل انتقل كل منا إلى الرصيف المقابل.

حلما حلما، وحفنة شوق أخرى، بعض الدمع سكبنا، به جبلنا الملح وبعد رصف الأمنيات أقمنا بنيانا صلبا، يشدّ بعضه بعضا، على شفا قبلة شرسة توطد الشوق، وتكتّلُ الأحلام فوق بعضها حتى تترنح في تلاحم الأرواح والسقوط ليس مستثنى، يتسم بالصمت والإطراق للأحاسيس فكلاهما يجعل اللقاء وليمة شهيّة قبيل الانفجار.

كنت أجهل أنك أنت أيضاً جاهل، كنت قد رهنت عقلي عند ذكرى في نحو الستين من عمرها، تميل في ألوانها إلى البرزخ، لها بريق كـبريق المعدن، أنيقة الهندام، لها مظهر من مظاهر السادة، لها نظرة ثابتة ملحاح، مثل الحب المزّمل بخبايا أقمصة التاريخ كـلفافة تبغ فاخر في المساء لا يخلو من وسامة، وإن لحدوثه نضارة لا يُرى مثلها، مما يتيح لك السهر حتى آخر الليل، لتسمع شهيق باب شقة مجاورة ينغلق على آخر الهمس، ويتيح لك اكتشاف أنك الجار الوحيد الذي لا ينغلق بابه على أحد سواه.

عند كل لحظة هاربة يشدّ العمر بما يشبه الكلاّبة، عند كل كلمة نقولها في الحب نوجعنا، بينما أعيننا تلتهمان بعض النظر، بذهول ودهشة حين يلتقي البصر يغادر منكّس النظرات بلا مناقشة ولا تردد، بإحساس بالخوف والرعب، نحن البشر لا نحب أن نُحبّ دون الرغبة ونزعة العصيان، وفي النهايات دوما نلوذ بالهرب، حين نحبّ يجب أن نمعن في التنقيب فيصير التحديق ضيّقاً لا يصلح للتعبير، ومن هنا يا رفيقي لو لم نفترق لساء حاله مزيدا من الفظاظة، وما كان ينبغي أن نحنقه.

كنت سأقول له فيما بعد: "إن توقف الحب برهةً لا يستأنف فيما بعد. وفي مكان ما لا زلت أحمل له أنفاساً من تلك الدروب الوعرة، في غابات الصنوبر وحفنة من الدّقل.

ليس من حق من يعلم أنه يوشك على الوقوع في جريمة أن يجيء لاحقاً وبعد وقوعها يدعي توخي الحذر.

سوف تحملنا رياح الغرب إلى حيث لا سهل ولا غابة.

ولسوف نلتقي ربما مصادفة وربما مؤامرة، لكن بتأجيل مسافة نسيان.

## 21-5

بايعته الليلة بيعة الرحيل وأعلم يقينا أنني بذلك أقتل كل الاحتمالات في إمكانية العود، لكنني أربح ربحاً كبيراً حين أعفو عنه وعني من أخطر احتمال، أن نسقط فريسة الحنين ومسؤولية الانتظار تجاه ذكرى كانت الأجمل على الإطلاق.

حتى نميّز مراسم البيعة أكلنا سوية حفنة سكّر وسلّة شكولاتة، وشربنا نخب الرحيل ركوة قهوة ونصف الركوة دفعة واحدة، إن قهوة الفراق تعادل كأس نبيذ مثلّج ونصف زجاجة براندي فيعطيا يوم الرحيل بعده الخالد.

ذاكرة الأرض يا سحر تحفظ أثر الخطو ألف عام على قدره وعدده، وأنا أحفظها مسافة سقوط واندثار على بعده وقسوة ثقله.

ألزمتُ نفسي باستخدام عضلات النسيان حتى محوت الذاكرة للحصول على ذاكرة أميّة، فوجدت أن الفرق بين اللقاءات الأوروبية

والعربية في الحب، أن النطق بمفردة (أُحِبُكْ) تعني لدى الأوروبيين بداية مسيرة الحياة مع الطرف الآخر والمسؤولية، بينما تعني للعرب بداية الجولة الانتهازية، لذا وإن لم تكن على قدر الوعد فكن على قدر البعد، وامنحني ذاكرة بيضاء.

في الحقيقة لا جدار بيننا، وإن الجدار الوحيد هو مسافة إدراك.....

رواية

مرمر القاسم

# مجانين في زمن عاقل

◆

هذه المرة اختلف الأمر أيها المجانين، فعلى مرمى شهقة من فقداني، جلس ببرودة أعصابه المعهودة دون أن يقتلني، بين أصابعه سيجارة يشعلها يمتصها بنهم، فينضج الموت في فمي ولا يهتكنَ سرَ الدخان، يكفي نظراته اغتصاباً لحرمة امتناعي فيزداد شوقي واحتراقي.

فهمت فهمت، هكذا صرخ ملوحاً بدخان سيجارته المجنون، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة، أدركتُ إذ ذاك أنني جاوزت حدود المرأة واعتديت على واجبات الأنوثة، فرأيتُ أن أعتاض بالصمت عن الاندفاع في الهمس واللمس.




فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan . dar_fadaat@yahoo.com




لوحة الغلاف: عدي حاتم صليوة - العراق